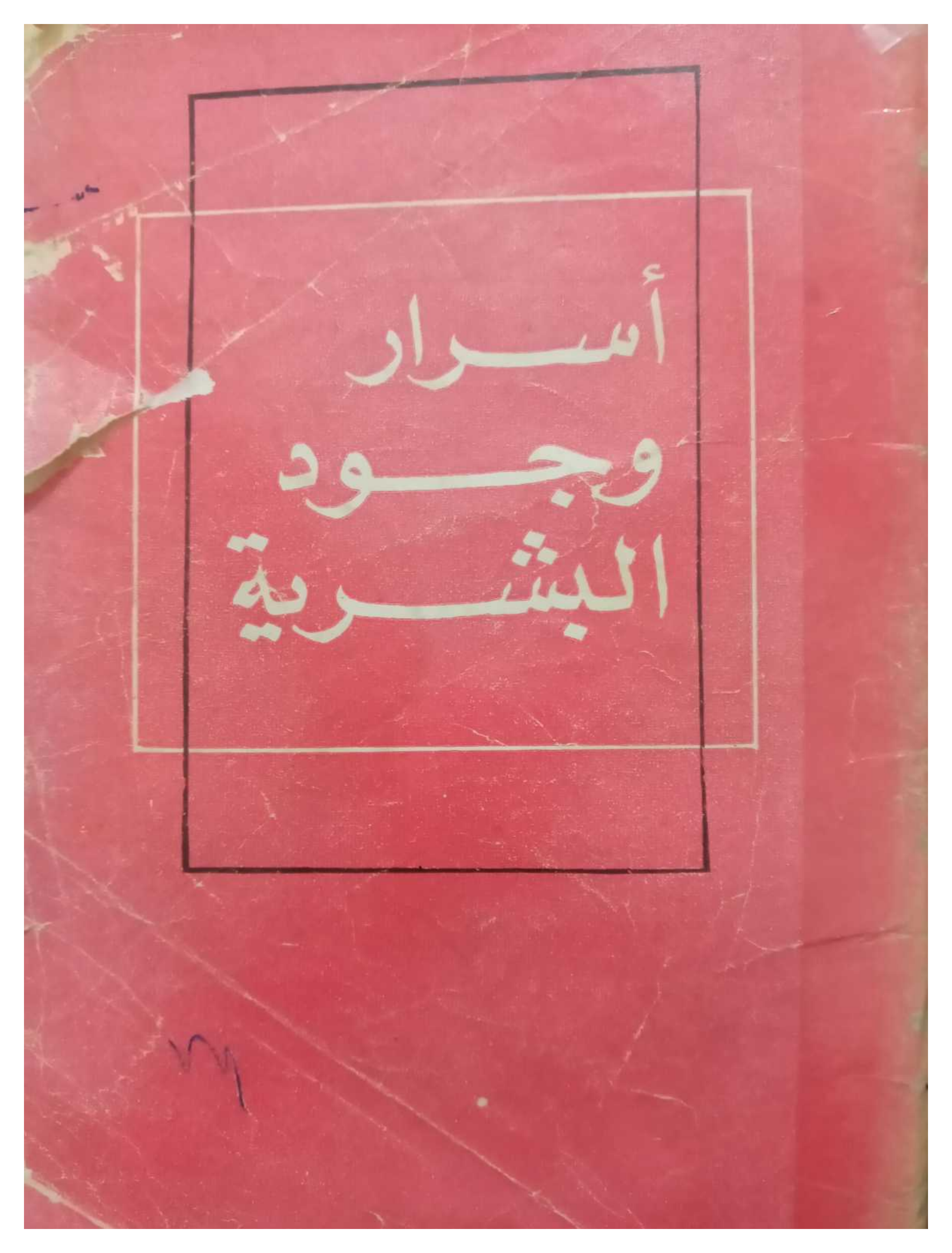

أسرار
وجود
البشرية

أسرار وجود البشرية

دار نشر وكالة « نوفستي »
موسكو – ١٩٧٢

لماذا هو سر ، واين يكمن ؟
(بدلا من المقدمة)

« ... يكمن سر وجود البشرية لا فى كوننا نعيش فحسب ، بل فى الهدف الذى نعيش من أجله .ولا يرضى الانسان ان يعيش بدون تصور واضح لما يعيش من أجله ، وبغير ذلك فهو يفضل أن يفنى على البقاء على وجه البسيطة ... » . هذه الكلمات تقولها احدى شخصيات رواية الكاتب الروسى العظيم دستويفسكى « الاخوة كارامازوف » . ومن السهل أن يدرك القارىء أن اسم هذا الكتيب يفسر المعنى الذى تحمله السطور السابقة .

لقد أقلق البحث عن معنى وجود الانسان لاديستويفسكى وحده وشخصيات وأبطال رواياته ، بل وكثيرا من الأجيال بما فيها جيلنا ومعاصرونا .

وفكر الناس منذ مراحل مبكرة من وجودهم ، فى ظروف حياتهم وفى وجودهم فى العالم الكبير ، فالحيوانات فقط تظل على حالها التى اوجدتها الطبيعة عليها ، وتخضع لأوامرها دون أن تفكر فى سر هذا الوجود ودون أن تضع لنفسها هدفا . وحتى

« طموح » الحيوانات ، ان جاز الحديث عن شيء من هذا القبيل ، مشروط بصورة كاملة بالتكوين البيولوجى لها . واما بالنسبة للانسان فالأمر اكثر تعقيدا .

ان هم الحيوان الذى ينصاع للغريزة هو المحافظة على حياته وحياة سلالته ، واما الانسان فكثيرا ما يضحى بنفسه طائعا مختارا فى سبيل مثله . ان الحيوان يعانى آلام الجوع ويموت اذا لم يجد فى الطبيعة ما يسد رمقه ، واما الانسان فكثيرا ما يجوع بينما تكاد العنابر تنفجر بما تحوى من القمح . ويكتفى الحيوان بالغذاء والمأوى : جحرا او عشا ، اما الانسان فهو بحاجة الى الكتب والافلام والعلم والفن وتزداد حاجته الى كثير من الأشياء التى لا توجد جاهزة فى الطبيعة .

ان وجود الانسان معقد الى درجة يصعب معها الاحاطة به فى نظرة واحدة ، كما لا يمكن ان نلم بمسائل هذا الوجود بصورة سريعة ، وهكذا يشرع الناس فى التفكير لماذا نجد البعض راضيا وسعيدا ، والبعض الآخر من الناس يعيش فقيرا شقيا ، ما هو مصدر المصاعب والحياة الشقية ، وهل يمكن تغيير ظروف الوجود الانسانى ، أم ان ما هو موجود اليوم سيبقى غدا والى الأبد دون ان يطرا عليه اى تغيير ؟



ان هذه الأسئلة تجر وراءها بالضرورة أسئلة اخرى : ما هو الانسان ؟ ما مصدر كل ما يجعل البشر بشرا ؟ ما معنى وجودهم ؟ وكل هذا مرتبط ومتداخل بصورة لا فكاك منها ، فعندما نفهم ما هو الانسان يمكن أن نفسر لأنفسنا وللآخرين لمذا يعيش وما معنى وجوده .

لقد شهد التاريخ محاولات عديدة للاجابة عن هذا السؤال ، وعددا مساويا لها من المصاعب والتناقضات ، ولا شك انه من المتعة بمكان كبير أن نتابع هذه المصاعب عبر التاريخ ، ولكن هذا لا يدخل ضمن مهمتنا هنا ولذا فسوف نقتصر على ايراد بعض

الأمثلة هادفين الى التدليل على مدى اهمية وخطورة هذه الأسئلة بالنسبة لأولئك الذين ارادوا واستطاعوا ان يفكروا فيها

هل كل شيء مباح ؟

ان نماذج الوعى الفنى ذات اهمية عظيمة لادراك مشكلة هذا العصر او ذاك وفى بعض الأحيان تكون ذات أهمية حاسمة . ولذا فليس من المستغرب ان نلجأ الى دستويفسكى وبالذات الى روايته « الاخوة كارامازوف » . ان الفنان ـ لا سيما اذا كان كبيرا مثل دستويفسكى ـ كثيرا مايعى ويعبر بصورة جادة ودقيقة وواضحة عن وضع من الأوضاع ، الأمر الذى لا يقدر عليه الانسان البسيط بل والعالم فى بعض الاحيان .

ما هو معنى الوجود الانسانى ، هكذا يتساءل ابطال دستويفسكى ، وقد يبدو للوهلة الاولى ان الامر بسيط لا ينطوى على اى تعقيد فليس على الانسان الا ان يرغب فى الحرية وتلبية مطالبه وان ينشط لاشباعها ويجد من اجلها ، واذا لم يوفق فهذا يعنى انه لم ينشط بما فيه الكفاية وهو وحده المسئول والمذنب فى ذلك .

ولكن اذا عالجنا المسألة بنظرة أعمق فهى ليست على هذه الصورة من البساطة . فالذين يصلون الى اهدافهم لا ينشطون فى فراغ لأن الانسان محاط بعالم الطبيعة الهائل ، الذى يخضع فى تطوره لقوانين لا يتوقف وجودها على ارادة ووعى الفرد والناس جميعا . وفضلا عن هذا ، فان الانسان الذى يعيش فى المجتمع لا بد له ان يخضع لتلك المطالب التى تتطلبها ظروف عمله ، والمجموعة الاجتماعية التى ينتمى اليها ، والهيئات الاجتماعية والدولة ؛ ومعنى ذلك ، ان الانسان امام قوى لا يتوقف وجودها عليه ومستقلة عنه . يحدثنا عن هذا ذلك العلم الذى يكشف لنا

ن الشروط والاسباب الكامنة وراء تعاقب الأحداث ، والترابط الضرورى بين السبب والنتيجة ، والعلة والمعلول . وهنـاك علة وراء كل حدث فى حياة الانسان وما دامت العلة موجودة فالنتيجة او المعلول موجود لا بوصفها وفقا لضرورة صارمة . واذا سلمنا بهذا فان الانسان يغدو حلقة فى سلسلة الاحداث المتتابعة والمطردة وفقا للقوانين الطبيعية ، وارادته الخيرة او الشريرة غير قادرة على تغيير اى شيء فى العالم .

« ... انى اعلم ان العذاب موجود ، مع وجـود المذنبين ؛ وان احدهما ينتج عن الآخر بصورة مباشرة ، وان كل شيء دائم الحركة ويحافظ على توازنه ... » ـ هـكذا يقول اكثر ابطال دستويفسكى تأملا فى الرواية السـالفة الذكر ، وهـو : ايفـان كارامازوف .

واذا افترضنا ان كل ما يجرى فى العالم يخضـع للقوانين الطبيعية فان سلوك الانسان وارادة الناس وطموحهم يغدو محددا سلفا وبصورة واحدة لحتمية طبيعية لا تقبل الجدل او المناقشة. وعليه فلا يوجد للمرء ذنب فى الجرائم و لافضل له فى الأعمال النبيلة : فهذا وذاك يجرى وفقا لهـذه القوانين والانسان بذلك ليس الا لعبة بيد هذه القوانين ، او « ازرارا فى آلة الارغن » كما قال بطل آخر من ابطال دستويفسكى لا داعى للحديث عن معنى حياته واهدافه الخاصة . لانه من المشكوك فيه ان يرضى الناس بهذا الدور وان يجدوا فى تحولهم الى « ازرار » تحقيقا لرسالتهم السامية ، التى هيئوا لها ...

لا بد ان يكون لدى الانسان هدف ما اذا كان يختلف بحق عن الحجر وعن « ازرار الارغن » او على الأقل عن الحيوان ! واذا لم نستطع ان نكشف وجود الهدف فى واقـع حياة الناس فمن الممكن ان يكون موجودا فى الحياة الأخـرى ، فيما وراء هـذه الحياة . وربما كانت اهداف الانسان مرتبطة بخلود الروح ، فى

العالم الآخر ، الذى وهبه الله للانسان والذى من اجله كانت هذه الحياة الدنيا ، ومن أجله نصنع الخير لا الشر .

ودستويفسكى يجد وعلى الأصح يحاول أن يجد الخلاص فى الله . وفى هذا لم يكن اصيلا بأى حال من الأحوال . فقبل دستويفسكى بزمن طويل فكر الفيلسوف الألمانى « عمانويل كانت » على هذه الصورة ، ودستويفسكى يجادله بحماس دون ان يذكر اسمه .

ان وقائع الحياة الفعلية لا تنسجم مع تصورات من هذا النوع . فالشر فى الدنيا ليس اقل من الخير . والشر (على أقل تقدير فى هذا العالم لأنه من الصعوبة أن نصدر حكما عن العالم الآخر) كثيرا ما يظل أصحابه دون عقوبة .

ولم يستطع دستويفسكى - وهو الانسان الذكى والشريف - أن يمر دون اهتمام بهذه الحقائق ، وبالعذاب الذى لا حصر له ، وبالفقر والمصائب كل هذا يجرى فى عالم من صنع الله ! كيف يمكن التصالح والتعايش مع عالم كهذا ؟ قال ايفان كارامازوف لأخيه اليوشا : « انى لا أرفض قبول وجود الله ولكنى ارفض العالم ، العالم الذى خلقه ، انى أرفض عالم الله ، ولا أرضى به » . لقد ظن لأسباب انسانية أن هذا هو الموقف الوحيد الممكن ولكن النتيجة الحتمية لمثل هذا الموقف هو الالحاد .

اننا امام مفارقة صريحة . فمحاولة انقاذ الحياة الانسانية من انعدام الهدف والمعنى باللجوء الى الله وبمساعدته لنا تؤدى الى انكار الله وهذا الانكار يقودنا الى عواقب أوخم . فاذا كان الله غير موجود فمن يحاسبنا ؟ . ان ابطال دستويفسكى يصلون الى نتيجة منطقية فى نظرهم وهى : ما دام الانسان غير محاسب أمام أحد (لأن الله غير موجود) فكل شىء مباح ! كل شىء بما فى ذلك الموبقات واعمال الشر . قال ايفان كارامازوف : « لا يقتصر الأمر على اباحة الشر بل والاعتراف به كشىء ضرورى

ومخرج ذكى ، هذه هى النتيجة التى تترتب على مقدمة كل ملحد » .

كل شىء مباح ! يختبر دستويفسكى فى كثير من مؤلفاته هذه القضية من خلال الصراع فى الحياة . فكل بطل يفسرها على طريقته الخاصة . والخاتمة واحدة لأنه ما من احد منهم يكتسب الحرية الحقيقية او السعادة ، بل انهم اما ان يفقدوا الحياة او العقل . لقد جرى احصاء لعدد الموتى فى اربع روايات له فكانت النتيجة عشرين ميتا ـ مشرحة ملأى بالجثث ! .

وقد لاحظ بحق احد الباحثين فى ادب دستويفسكى ، ان القاتل الذى اودى بحياة المقتولين والمنتحرين انما هو هذه القضية : كل شىء مباح . فهى تقتل فى اشخاصهم نفسها كفكرة . نعم . لا يجدر بالانسان ان يحيا وفقا لهذه الصيغة ، متخطيا القانون ومؤكدا بهذه الصورة وجوده وحريته .

ان المسالة معقدة بلا شك . فلا الاقرار بالحتمية الطبيعية ، وبضرورة وجود نظام الأشياء السائد ، ولا الايمان بالله ، ولا الكفر به يساعدنا على حل لغز الوجود الانسانى . اى كائن غامض هذا الانسان الذى تطرح حياته كل هذه المتناقضات والألغاز ؟

الا يقدر هو بما حبته به الطبيعة من خصائص على حل هذه الألغاز ؟ فهذا هو السبيل للبحث عن معنى الحياة .

« التناسق » لدى المفتش العظيم

فلنتصفح يوميات دستويفسكى لعام ١٨٧٧ . نجد هنا تقويما متشائما للانسان « ـ الشر كامن فى الانسان . لا يمكن تجنب الشر فى اى كائن اجتماعى » وقد قال ايفان كارامازوف شيئا شبيها بهذا هو « يتحدث الناس عن القسوة الحيوانية فى الانسان وهذا ليس عدلا ولا اساءة الى الوحوش ، فالوحوش المفترسة

لا يمكن ان تكون قاسية الى هذه الدرجة ، ان الانسان قاس بصورة متفننة وماهرة »•

هل الانسان حقا ابن الشر ومحكوم عليه ان يتقلب ابدا فى عالم المآسى والجرائم ؟

ولكننا نجد فى نفس اليوميات من ذلك العام ما يلى : يستطيع الناس ان يكونوا رائعين وسعداء اذا لم يفقدوا القدرة على العيش فى الأرض (وليس فى السماء ـ ملحوظة ا. ب) • « لا اريد ولا استطيع ان اؤمن بأن الشر هو الحالة الطبيعية للناس » • وكصدى لهذه الكلمات نسمع صيحة أحد ابطال « الاخوة كارامازوف » وان كان ذلك دون ثقة وتفسير : « ان الانسانية ستجد القوة فى نفسها لكى تعيش للخير ، وحتى دون ان تؤمن بخلود الروح ! ستجدها فى محبتها للحرية والمساواة ... » •

كم اراد الكاتب أن يؤمن بهذا ، ولكنه لم يستطع ان يوفق بين الحقائق الصلبة العنيدة فى الواقع وبين احلامه وآماله • وعلى كل حال لم يكن التفاؤل هو الذى املى على دستويفسكى تلك اللوحة التى رسمها ايفان كارامازوف فى سرده لاسطورة « المفتش العظيم » •

وبالرغم من ان الحديث يجرى عن اسبانيا القرون الوسطى ، فليست مسائل الأيام الغابرة هى التى تقلق دستويفسكى •

هل تذكر هذا التاريخ القاتم والخرافى ؟ •• اسبانيا فى تلك العصور التى سادت فيها محاكم التفتيش على كل شيء ، وعندما لم يجرؤ احد على مقاومة ارادة محاكم التفتيش المقدسة ورئيسها فالناس الذين ارعبوا بحرق الهراطقة فقدوا قدرتهم على المقاومة ، فعم الخضوع المطلق •

وفى يوم الحساب العظيم حدث الأمر الذى انتظره المؤمنون قرونا على الأرض ـ هبوط الله الى العالم ...

ولكنه لم بعد سيد العالم . فقد القى الحراس ، المطيعون لارادة شيخ فى التسعين من عمره به فى السجن ، وسط صمت جماهير خانعة مطيعة من المؤمنين .

وهناك يتحدث المفتش العظيم ، عن تكوين حياة الناس ، بل ان الحرية الانسانية التى يبدو انها أسمى أنواع الخير ضارة . ولن نناقش محاولات دستويفسكى الرامية الى ربط الحرية بارادة الله (تماما مثل ارادة الخير التى ربطها بعقيدة خلود الروح) .

ان ما يهمنا الآن شىء آخر - ما يمكن تسميته بالبرنامج الايجابى للمفتش العظيم .

وعليه فمن الممكن أن تسير حياة الناس على الأرض على الوجه الامثل وبدون حرية . فالحرية نصيب « المختارين » وهم قلة قليلة على الأرض . وليس هناك مطلب أكثر الحاحا لدى الناس من شعورهم بأن عليهم أن يقدموا للآخرين الحرية ، هذه الهبه الالهية ، والتى يولد معها هذا الكائن الشقى ، الذى يدعى الانسان ، ومع هذه الهبة يقدم الانسان الضمير وحل مسألة الخير والشر . وبهذه الطريقة يمكن أن نبلغ الحالة المثلى للوجود الانسانى : « سوف توجد مئات الملايين من الأطفال السعداء ومائة ألف من المعذبين ، أولئك الذين تحملوا لعنة معرفة الخير والشر » . ولكن ماذا عن الله ؟ اذا دعت الضرورة فيمكن أن نذكره فى أوقات الصلاة ! . ولكن تحت ستار اسمه نقيم الرفض الاختيارى للحرية ، اى الخضوع الاختيارى لجبابرة الدنيا .

ولكن علينا أن ننصف دستويفسكى ، لأنه لم يكن راضيا عن « تناسق العالم » وانسجامه ولم يرق له المفتش العظيم . ولكن

ليس من الممكن ان نتخلى عن فكرة « التناسق » هذه ببساطة فليست هى فكرة سخيفة من ابتكار مفتش مخبول ، وليست قذفا يهدف الى الحط من قدر الانسان ، انما هو واقع وخطر محيق وداهم ، ومستقبل التطور فى مجتمع لا يكترث الناس فيه الا بنجاحهم وسعادتهم ، وحيث يعتبر هذا ، فوق ذلك ، الحالة الطبيعية للانسان (١) . وقد رأى دستويفسكى بوضوح هذا المستقبل الكئيب .

اننا بالفعل أمام مشكلة لا مفر منها ولا مخرج . فالانسان يصطدم بأسرار يتعذر عليه فهمها . وكيف يمكن الحديث عن الأهداف اذا كان الناس غير أحرار بصورة تامة ، رغم طموحهم الى الحرية ، وهم بعد نبذهم لها يتلقون السعادة بديلا عنها ، بل ولا يتسنى لهم حتى الاشباع البسيط لمطالبهم . اذن ما هو الانسان ؟ ما مصدر تلك القوة التى تجعل البعض ناسا والبعض الآخر شيئا يشبه الضوارى . وما معنى وجودهم اذن ؟ على كل حال ، لم يستطع دستويفسكى أن يجيب عن هذه الأسئلة .

الانسان فى عالم غير انسانى

واذا كانت هذه النواقض (٢) التى كانت موضوع تفكير دستويفسكى ، تقلق اليوم كثيرا من الناس فى عالمنا ، فالذنب انما هو ذنب تناقضات الراسمالية التى لا يمكن التوفيق بينها ،

---

(١) لا يخلو من الفائدة ان نذكر هنا بان هذه المسالة تطرح بصورة حادة فيما اصطلح على تسميته بالروايات العلمية الخيالية . ويكفى هنا ان نشير الى رواية ستانسلاف ليم « العودة من النجوم » ورواية رى برديبرى « ٤٥١ درجة فرنهايت » وغيرها . وانتشار هذه الروايات الواسع ورواجها يعفينا من ذكر الامثلة المناسبة لهذا المقام .

(٢) النواقض هى التناقضات التى لا تقبل الحل والناتجة عن التدليل على صحة قضيتين متناقضتين بصورة متعادلة .

والتى لاحظها الكاتب فى عصره وقد بلغت حدتها اليوم الحد الأقصى . ولذا لزم ان نعود الى دستويفسكى ونحن بصدد الحديث عن الوضع الراهن فى العالم .

والى هذا يعود أيضا سبب الرواج الراهن الذى يشبه « الموضة » لمؤلفات الكاتب العظيم .

ينسب الى ا . فروم العالم الاجتماعى والنفسى الامريكى هذا القول المأثور ، والذى وفق فى تشخيص المسأله التى نحن بصددها : « تكمن مشكلة القرن العشرين فى ان الانسان قد مات » . ومعنى هذه الكلمات هو أن الانسان فى المجتمع المعاصر يبدو كما لو كان مهيئا لأن يفقد القدرة على التعرف بصورة انسانية ، اى ان يضع أهدافه لنفسه ويختار بنفسه أيضا وسائل تحقيقها . انه ، بكل ما فى الكلمة من معنى ، مهيأ للعمل كجزء من آلة ، ولكنها آلة من نوع خاص ـ انها الة اجتماعية . وفى هذا المجتمع حيث يسود النظام ، المفروض على الافراد من خارجهم والذى يخضعهم بصورة تامة سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، تغدو كثير من خصائص الانسان النوعية مثل القدرة على اتخاذ القرار ، وبصورة عامة القدرة على التفكير للمستقبل امورا فائضة عن الحاجة . وان عليه ان يتقن شيئا واحدا هو : التنفيذ الآلى للأوامر او القيام بالوظيفة التى يمليها عليه النظام المفروض .

يتوج جهاز الدولة البيروقراطى الآلة الاجتماعية الهائلة فى المجتمع الرأسمالى ، والانسان فيها لولب ينشط وفقا لقوانين عمل هذا الجسم الآلى ككل . وكل ما يمكن أن يقدمه مسخر لحاجات هذه الآلة . ان هذا النظام يخلق فى الانسان الصفات الضرورية له . ويبدو الأمر كما لو ان هذه الصفات كامنة فى الانسان بصورة طبيعية .

هل يمكن ان نحكم على أى وجه من الوجوه على صفات الانسان بصورة موضوعية ودقيقة ؟ لقد تعودنا تصديق كل ما تؤكد الحسابات والصيغ والتجارب صدقه . ولذا سوف نولى قدرا من الاهتمام للتجربة الفريدة التى قام بها ملجرام الاستاذ بجامعة هارفارد .

كان على الشخص الجالس على الكرسى الموصل بالكهرباء الذى تجرى عليه التجربة فى غرفة منعزلة ، ان يحفظ مجموعة من الكلمات املاها عليه مساعد الاستاذ . وفى حالة ارتكاب الخطأ عند ترديد الكلمات يعاقبه المساعد بصدمةمن التيار الكهربائى ، وهو يجلس فى غرفة مجاورة وامامه لوحة تحدد قوة التيار الكهربائى التى تتراوح بين خمسة عشر واربعمائة وخمسين فولتا . وكتب على الزرار رقم (٤٥٠) ذى اللون الاحمر « خطر ! ! صدمة قوية » وكان المساعد يشاهد الرجل الذى تجرى عليه التجربة على شاشة التليفزيون ويسمعه بمكبر الصوت . ولكى تكون لدى المساعد فكرة عن العقوبة كان عليه أن يجرب قبل بداية التجربة صدمة كهربائية تعادل ٤٥ فولتا .

وماذا كانت النتيجة ؟ لقد ضغط ثلاثة وستون بالمئة (٦٣٪) من الذين اشتركوا فى التجربة على الزر الاحمر . ولم يقلل من هذه النسبة أن الذين اشتركوا فى التجربة شاهدوا عرضا من فنان محترف مثل بصورة بارعة الآلام التى يعانيها من يتعرض لصدمة كهربائية قوية . ذلك لأن أحدا من مساعدى الاستاذ لم يكن يعرف هذه الآلام .

ان نتيجة هذه التجربة تكاد تدفعنا الى الاستنتاج الذى توصل اليه بعض أبطال دستويفسكى وهو القائل بأن الانسان قاس بطبيعته . وفى الواقع لا يد للطبيعة هنا .

ان القسوة فى هذه الحال انما هى نتيجة للصفات والخصائص التى تكمن فى النظام الاجتماعى للراسمالية . ان القسوة تغدو

قاعدة للسلوك فى مجتمع كالولايات المتحدة حيث يعبدون القوة ، وتنشر الدعوة الصارخة للحرب فى فيتنام ، ويقتلون بقسوة الزنوج والزعماء والقادة السياسيين ، والابرياء من المواطنين . وحيث ينشر الراديو والتليفزيون كل يوم افكارا تمجد القوة وتشيد بالانسان « القوى » الذى يصل الى هدفه فوق جثث الآخرين ويحتقر كل ما هو انسانى . فى هذه الظروف تكون القسوة قاعدة للسلوك ، قاعدة تستجيب لراسمالية الدولة الاحتكارية وحاجاتها وتلد الروح العسكرية كأفضل وسيلة لوجودها .

ولقد اقلقت اليابان ثلاثة حوادث متشابهة الى درجة عجيبة : تخلفت الطالبة كاتسوياما مونو عن التمرينات بسبب مرض الم بها وقد عوقبت من قبل صديقاتها بضربها ضربا مبرحا افقدها القدرة على الكلام والحق بها اصابات عديدة ، وعندما سقط اسيسرو سيمانوكى البالغ من العمر خمسة عشر عاما فى ساحة الرجبى من الأعياء ، عاقبه رفاقه فى النادى بضرب راسه بقضبان النافذة الحديدية عدة مرات وقد مات بعد ذلك بعدة ساعات . والحادثة الثالثة ، حاول ديساكو انيو أن يهجر نادى الكاراتى الذى أجبر على الالتحاق به بالقوة . فضربه الطلاب الذين يديرون النادى لمدة ساعتين فأحدث الضرب نزيفا فى المخ ادى الى وفاة الطالب .

لقد أبرزت هذه الحوادث التراجيدية بصورة منفرة السمات السادية الكامنة فى النزعة العسكرية اليابانية المتعصبة . وهذا لا يختلف كثيرا عن « روح » : لا يمكن ان نغفر لأولئك الذين ضدنا .

وهكذا نرى ان تلك القسوة المذهلة فى الانسان والتى اظهرتها تجربة الاستاذ ماجرام ليست نتيجة لشروط التجربة وظروفها ؟ كما انها ليست بأى حال نتيجة لعوامل الوراثة وليست ايضا « هبة » من الطبيعة للانسان .

وهناك مسالة اخـــرى ، فقد افترض الاستاذ ملجرام ان الميل المرعب نحو القسوة يمكن تفسيره على أنه انعـــدام لروح المسئولية لدى المساعدين ، فهم منفذون صفار لارادة غيرهم . ولا يمكن الاعتراض على هذا التفسير . ولكن انعدام روح المسئولية لدى الناس ليس صفة طبيعية أو فطرية ، بل هى نتيجة خضوع الانسان الخانع فى العالم الراسمالى لارادة ورغبات البيروقراطية والاحتكارات .

وخير مثال على هذه النزعة السادية التى تكره الانسان ، نجده فى اعمال الفاشية . فقد تحول الناس العاديون الذين دفعتهم الظروف الى فلك الماكينة الهتلرية الى ســاديين ومهنة محترفين ، وغدا القتل بالنسبة لهم بمثابة القيام بواجب وطني او من مستلزمات النظام .

ان اخضاع الانسان لعالم الأشياء ولقوى طاغية سمة تميز كل مجالات الحياة فى المجتمع الراسمالى .

ويتضح هذا بصورة جلية فى مجـال الانتاج حيث يزداد باطراد نصيب الآلة فى عمليات الانتاج ، وهذا يغير بصورة جذرية مفهوم كلمتى « انسانى » و « آلى » فكثيرا ما تحل الثانية مكان الاولى .

قال اديسون ان وراء كل اختراع ٩٩ ٪ من الجهد و ١ ٪ من الالهــام . ان الانســـان يتخلى بالتـــدريج عن وظائفه للآلة (عن ٩٩٪) ولكن هل يؤدى هذا الى تخفيف وطــأة العمــل ، ويغنى البشر عن الاعمال المرهقة ، ويجعل الحياة اكثر غنى واقل عسرا وارهاقا ؟ أم أن هذا يسلب الانسان جزءا هاما من حياته بحيث تغدو اقل امتاعا ؟

ان ما يثير الاهتمام هنا أن الاجابة عن السؤالين فى هذه الحال تكون بالايجاب . نعم . ان التكنيك زاد من سيطرة الانسان

على الطبيعة ، وخفف وطأة العمل وحرر قواه المبدعة بان مكنه من القاء عبء كل العمل الذى لا يحتاج الى الابتكار على الآلة . ولكن نشاط الانسان يفقد فى ظل ظروف معينة جوهره الابداعى ، فيصبح يوما بعد يوم أشبه بالآلة . حقا ان الانسان أشبه بجوليفر : انه عملاق فى بلاد الأقزام ، عندما يشد التقدم التكنيكى أزر جبروته ، وهو قزم فى بلاد العمالقة عندما يخضع خضوعا مطلقا لمتطلبات التكنيك .

ان المأساة تكمن فى أن الانسان يصبح قزما فى العالم الراسمالى اكثر منه عملاقا .

ويغرى هذا الوضع بالقاء اللوم على التكنيك ، فيقولون انه يحول الانسان الى قزم فى معظم الأحيان وقليلا ما يجعل منه عملاقا . انه لا يمكن الغاء التقدم التكنيكى كما انه ليس بالامكان التقليل من سرعته ، وعليه فان مشكلة القضاء على عذاب الانسان أو التقليل منه ليست فى التكنيك بل فى طرق استخدامه المرتبطة بنظام العلاقات الراسمالية .

ان الأهداف الشخصية للانسان فى ظل الرأسمالية لا يربطها شىء بعملية الانتاج فهو يجهل مكانه فيه ولا يقدره . ان نشاطه العملى ليس الا وسيلة لتلبية حاجاته الأولية والتى تكاد تكون هدفه الوحيد . ان الانسان فى علاقة عمل كهذه يغدو عاملا فقط تماما كما يكون مستهلكا بالنسبة لطعامه وشرابه .

ماذا يشكل جوهر معنى الحياة فى هذه الحال ؟ يبدو أنه الاستهلاك والأهتمام بما يخص الانسان ، والفهم الضيق للمنفعة والمتعة ويصبح مستوى المعيشة بديلا عن معنى الحياة . وليس عبثا ان حضارة المجتمع فى الغرب فى الآونة الاخيرة تدعى « بحضارة الاستهلاك » .

ويخضع الانسان فى العالم الراسمالى خضوعا تاما للعوامل

الخارجية ويفقد حريته • ان الصورة التى رسمها دستويفسكى تتكرر أمامنا ولكن بصورة أكثر وضوحا وحدة مما هى عليه عند الكاتب •

كيف يمكن معرفة السر

ان محاولة ادراك سر الوجود الانسانى تعنى الاجابة عن السؤال التالى : ما هو الانسان ؟ ويصاغ هذا السؤال ووفقا للتقاليد الفلسفية القديمة على الصورة التالية : ما هو جوهر الانسان ؟ ويبدو أننا لا نطلب الكثير فليس أمامنا سوى معرفة جوهره •

بأية وسيلة سوف نحل هذه المسألة العلمية ؟ يبدو أنه من الضرورى أن نبحث فى مجموع الحقائق التى ترتبط بموضوعنا ونشرحها • ان الوقائع التى يستند اليها الباحث فى هذه القضية هى الناس فى مختلف ظروف حياتهم ونشاطهم • وتكمن صعوبة دراسة هذه الوقائع فى أن أفراد النوع الانسانى ذوو خصائص واستعدادات وصفات لا يمكن حصرها أو النفاذ اليها بصورة تامة فضلا عن الخبرات والعادات والمعتقدات •• الخ •

لقد جرت محاولات عدة فى تاريخ الفكر لاستخلاص ما يميز الانسان من هذا النسيج المتنوع للصفات والعادات والمعتقدات • وقد اعتمد الباحثون على مبادىء منطقية مختلفة •

شحمة الاذن والبجعة السوداء والدجاجة النتيفة

يبدو للوهلة الأولى أنه ليس من الصعوبة بمكان البحث عن جوهر عملية من العمليات أو ظاهرة من الظواهر أو حدث من الأحداث اذ يكفينا فى هذا الصدد أن نقارن الظواهر التى تهمنا

وان نحدد الصفات التى تكمن فى بعضها ولا وجود لها فى البعض الآخـــر .

ويدعى هذا فى لغة الفلسفة بالتجريد ، فنحن نجرد الظواهر التى ندرسها من خصائصهـا المتعددة ونبقى على ما هو مشترك بينها جميعا . وهذا العام المشترك بين جميـع افراد الظاهرة الواحدة (ويمكن أن نسميه المجرد العام) كامن فى هذه الظاهرة فقط ، وهذا يبدو لنا على أنه الجوهر الذى نبحث عنه ، ووراء هذه الطريقة فى البحث رصيد ضخم من أعمال الفلاسفة الكبار . واذا أخذنا بهذه الطريقـة فما علينا الا أن نلجأ الى المقـارنة بين الناس ، وهـذا بلا شك عمل شـديد التعقيد بالنسـبة للباحث الواحد ، ولكننـا اذا أخذنا فى الاعتبار تجـربة التاريخ البشرى بأكمله فانه بالامكان تحقيق هذه المهمة . وهـذه المقارنة سـوف تمكننا من تحديد ما هو عام ومشترك بين جميع الناس وبهـذا نصل الى المطلوب ، ويكون جوهر الانسان بين يدينا .

ولكن عملية بسيطة كهذه عند تحقيقها لا توصلنا الى الهدف ويتضح لنا أنه ليس كل ما هو عام ومشترك بين أفراد النـوع الواحد هام بدرجة متساوية بالنسبة للجميع . ولنأخذ مثلا على ذلك : لدى كل انسان شحمة اذن ، وينفرد الانسان بذلك بين الكائنات الحية . نحن أمام صفة مميزة للناس وحدهم ! ولكن ليس لدينا ذرة من الشك فى أن شحمة الاذن لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون جوهر الانسان . ان حقيقة كهذه تعنى أن المفهوم السـالف الذكر للجوهر قد تهاوى ، وتهاوت معه الطريقـة التى حاولنا بها العثور عليه .

ان عدم صـحة هـذه الطريقة ليس فى عدم تطابق التجـريد وجوهر الأشياء ، كما أننا باتباع هذه الطريقة سوف نرتكب خطا شائعا وتاريخ الفلسفة والمنطق يعرف مثالا صارخا بهذا الشأن :

لم يمل الناس طوال عصور عديدة من الاعجاب بالتم • وقد أحاطت الحكايات والاساطير والشعر بحياة هذا الطائر الرائع وحيثما رأى الناس هذا الطائر اولوا اهتمامهم ببياضه الناصع ، ونشأ التعريف التالى : « ألتم الابيض » • وبدا من الملاحظات كما لو أن كل طيور التم بيضاء • وهذا الاستنتاج صحيح فى حدود قولنا : كل طيور التم التى شاهدناها الى الآن بيضاء • ولكن مثل هذه الدقة فى القول تصبح غير ذات موضوع بعد اكتشاف وجود التم الاسود فى استراليا •

وهكذا يتضح أن محاولة الحصول على شىء مشترك أو عام بين أفراد النوع بالمقارنة البسيطة ليست طريقة مضمونة للنجاح وما دام قد اتضح أن الصفات العامه لدى طيور التم ليست عامة فان هذا يمكن أن يحدث عند بحث أية ظاهرة أخرى ، ويعنى هذا أن صفات الاتساق التى يمكن استخلاصها بالتجريد ليست صفات غير أساسية فقط بل وغير عامة أيضا •

لقد حاول الفيلسوف اليونانى أفلاطون قبل أكثر من ألفى عام أن يعرف جوهر الانسان بالطريقة السالفة الذكر • وقد تمكن من أن يحدد سمة خاصة بالانسان وحده وتوجد لدى كل فرد ، الا وهى أن الانسان حيوان ذو ساقين وبدون ريش •

ان السمات التى استخلصها أفلاطون عامة ومجردة ، تماما مثل شحمة الاذن المذكورة ، تعيننا على تمييز الانسان بين الكائنات الحية مادمنا قد افترضنا بالطبع أن هذه السمات تخص الانسان بصفة عامة وكل فرد على حدة • وبعد مضى ألفين من السنين صاغ الفيزيائى والرياضى الفرنسى المشهور باسكال اعتراضا مفرطا فى البساطة والذكاء اذ قال ان الانسان يبقى انسانا بدون ساقين ولكن الديك حتى بدون الريش لا يمكن أن يكون انسانا بأى حال من الأحوال •

انه من السهل الاعتراض على هذه الشاكلة من الصفات التى نجدها بصورة متشابهة ومتقاربة لدى أفراد النوع الواحد من الناس مثلا . ولذا يطلق على هذه الصفات انها عامة ومجردة أى أنها لا تعبر عن جوهر الانسان ، ويمكن التخلى عنها دون أن نلحق أى ضرر بجوهر الانسان . ونجد بعد ذلك أنه بالامكان أن نفكر فى بعض الخصائص الأساسية للانسان والتى ليست أبدا متوفرة أو كامنة فى كل فرد من أفراد النوع الانسانى . ان طريقة البحث عن جوهر الانسان بابراز العام والمجرد غير صحيحة .

لقد وجدت طريقة تعريف الموضوع بالتصور العام والمجرد عنه أى عن صفاته وخصائصه ، فى فكر ماديى القرنين السابع عشر والثامن عشر أكمل تعبير عنها . وتكون هذا التصور فى البداية فى ميدان العلوم الطبيعية . فقد تراكمت فى ذلك العصر فى كل فرع من فروع العلوم الطبيعية معلومات ووقائع شاملة ومتنوعة ، الامر الذى كان بلا شك مرحلة ضرورية فى تطورها . وكانت الطريقة الوحيدة لفهم واستيعاب هذه المواد ، هى التصنيف والترتيب المنهجى : أى تقسيم المواد والموضوعات الى مجموعات مستقلة بصورة واضحة ، وفقا لتوافر بعض السمات والمميزات . وكان البحث عن هذه السمات هو أهم مهام البحث العلمى أنذاك . مثل هذا الاسلوب الذى استعاده الفيلسوف الانكليزى جون لوك من العلوم الطبيعية ثم قام بتحليله وتغيره نظريا ، ساد بعد ذلك كمنهج للبحث فى مختلف مجالات العلوم وكاد أن يصبح المبدأ السائد فى ميادين البحث العلمى . والمهم هنا هو أنه لا يمكن أن نفسر بصورة واضحة لماذا ساد هذا المبدأ الا اذا أخذنا بعين الاعتبار الخصائص الطبقية لمنظرى ذلك العصر اذ كان موقفهم الطبقى يرتكز على اقتناع قوى بأن العلاقات الاجتماعية للرأسمالية تناسب وتتفق مع « طبيعة » الانسان

ولذا يجب الاقرار بثباتها وخلودها · وينتج عن هذا أن كل نظرة عنميه عليها ، بصورة او أخرى ، ان تبرز النظام القائم أى ان تقتصر على وصف وتصنيف الظواهر التى تقوم بمراقبتها · أن منطق لوك يناسب مثل هده النظرة العلمية ، فهو ينطلق من مقدمة تقرر أن كل موضوعات البحث ومواده خالدة وفى صورة لا تتغير ، وهى بعينها تلك الصورة التى يراقبها الباحث ولا يمكن الحديث البتة عن صورة أخرى · ويبقى بعد ذلك أن نقارن ونحدد ما هو مشترك بينها ·

ويحرص على هذا المنهج أولئك المفكرون الذى يريدون المحافظة على النظام القائم ، وهم يحتفظون بهذا المنهج عندما يبحثون فى جوهر الانسان · ولسان حالهم يقول علينا أن ندرس جميع الناس ونعثر على ما هو مشترك ثم نركب « جوهر » الانسان من هذه الصفات المشتركة بغض النظر عن أن هذا « الجوهر » يصطدم بالخصائص الواقعية للناس ·

ويصدق هذا القول بصورة كاملة على واحد من أبرز ماديى الماضى وهو لودفيغ فويرباخ ، الذى افترض أن وجود الشىء يحدد جوهره ، فيمكن أن نعرف جوهر الاسان دون مشقة بملاحظة وجوده اليومى والمظاهر الخارجية لحياته ففيها يكمن الجوهر المطلوب · ولكن وجود الانسان متعدد المظاهر والجوانب الى درجة كبيرة . ولم يستطع فويرباخ أن يتخطى حدود المجتمع الرأسمالى ويقدم شروط وجود متساوية لجميع الناس فيه بل هو على العكس من ذلك يجعل الفقر قدرا مكتوبا للعاملين فى هدا المجتمع الرأسمالى · لماذا اذن يختلف بصورة صارخة وجود الناس الذين ينتمون الى طبقات مختلفة ؟ لماذا يتميز الناس عن بعضهم البعض بصورة جذرية « بسمات » متعددة ؟ ·

يرى فويرباخ أن الوجود العينى أى المحدد للناس لا علاقة له بجوهرهم عندما يعيش الانسان ظروفا غير عادية وشقية لا يمكن تغييرها • وهذا رأى لا يصمد للنقد • وقد لاحظ ماركس وانجلز بهذا الصدد ما يلى : « اذا كان الملايين من البروليتاريين غير راضين بأى حال من الأحوال عن شروط معيشتهم ، اذا كان « وجودهم » لا يتناسب على الاطلاق مع « جوهرهم » ، فهذا شقاء لا يمكن تجنبه ، وعليهم المعاناة بصمت » (١) •

لا يمكن بالطبع الموافقة على هذا الاستنتاج المترتب على موقف فويرباخ •

((المجرد الكامن فى كل فرد))

وجوهر الانسان

لقد اتضح من هذا السياق أن الوسيلة التى تبدو فى الظاهر بدهية لتفسير جوهر الانسان غير صحيحة • وقد أدرك هذا ممثلو الفلسفة التقدمية منذ وقت بعيد ، فقد كتب الفيلسوف الألمانى المثالى هيجل أن تصور الناس عن « الانسان » و « زرقة السماء •• الخ ، لا يعبر دائما عن فهم حقيقيقى لهذه «الموضوعات» وهذا الفهم الحقيقى ممكن فقط عندما « نظهر أن الأشياء وحدة للصفات والجوانب المتعددة)) (حط التشديد لى ـ ا • ب •) • وهيجل لم يستطع أن يطبق هذا الرأى الصائب بصورة منسجمة ويرجع ذلك الى نفس السبب السابق ضيق الأفق المرتبط بالنظرة الطبقية لممثلى البرجوازية ، وأوضح مثال على هذا أن هيجل وهو يحاول أن يكتشف جوهر الانسان لم يستطع

---

(١) ك • ماركس و ف• انجلز ـ تناقض النظرة المادية والمثالية (النشر الجديد للباب الاول من « الايديولوجيا الالمانية ») • بوليت ايزدات ١٩٦٦ ص ٥٧

ان يستخدم طريقته الدياليكتيكية فى تحليل القـوى الاجتماعية لمجتمعه . لم يعتبر قط ان البروليتاريا قوة تاريخية مستقلة ، وقد نظر اليها باعتبارها مجرد « رعاع » ولذا لم يتصـور الانسان فى عصره (لا كفرد بل الانسـان بصورة عامة) كوحـدة لجوانب متعددة بل ومتناقضة • وليس له فى هذا ذنب بل انه سوء حظ ففى زمانه وفى ألمانيا على وجه الخصوص كانت البروليتاريا طبقة ناشئة تخطو خطواتها الأولى على مسرح التاريخ •

ويختلف موقف ماركس وانجلز عن هذا بصـورة مبدئية • فقد أستخدما وطورا بابداع منهج هيجل الديالكتيكى ، ونظرا الى الفئات الاجتماعية للمجتمع فى وحدتها وتفاعلها ، وأوليا البروليتاريا اهتماما خاصا • ولهذا لم يتمكنا من معرفة سر الوجود الانسانى فقط بل شيدا المنطق الديالكتيكى بصورة منسجمة وعلمية صارمة الأمـر الذى يختلف اختلافـا كليا عن الوسـائل السـابقة التى أستخدمت لبحث المسائل العلمية ، بما فيها المشـكلة التى نحن بصددها ـ مشكلة جوهر الانسان •

يقول ماركس « جوهر الانسان ليس تجريدا يكمن فى كل فرد » (١) ان العثور على هذا الجوهر بابراز (التجريد) المميزات العامة لكل انسان مستحيل من حيث المبدأ لأن هـذه المميزات ستكون صفة « مجردة » ومقطوعة الصلة بالصفات الطبيعية الأخرى للانسـان •

كيف يمكن الاقتراب من تلك الوحدة التى تحـوى الجوانب المختلفة للحياة الانسانية والتى تكون جوهر الانسان ؟ •

يجب أن نبدأ بالانسان نفسه ووقائع حياته وظروفها الفعلية

---

(١) ك • ماركس و ف• انجلز • المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٣ •

ولمعرفة الناس فى الحياة الواقعية لابد أن ندرس قبل كل شىء هؤلاء الناس فى نشاطهم التاريخى •

لقد لاحظ فويرباخ حقيقة أن أبسط الحقائق هى تلك التى يصل اليها الناس فى نهاية المطاف • فقد كان على ماركس وانجلز وهما بصدد البحث عن المبادىء التى يمكن الانطلاق منها لمناقشة مشكلة الانسان أن يرفضا المفاهيم العادية المألوفة والتصورات السائدة ويقطعا الصلة مع الوسائل التقليدية التى لا تؤدى الى الحل الضرورى •

كتب انجلز « على الانسان أن يتصل بالعالم الخارجى ، ويحصل على ما يلبى مطالبه : الطعام ، فرد من الجنس الآخر ، الكتب ، والتسلية والمناقشات ، والنشاط وأدوات الاستهلاك والعمل • (١) •

ان الوحدة الفعلية للناس هى وحدتهم باعتبارهم أفرادا ينتمون الى النوع الانسانى وأن روابطهم وتفاعلهم ذات جوانب متعددة ومن خلالها فقط يخلقون كل ثروات الحياة الانسانية ، كل « عالم الانسان » الذى يشكل جوهره • وأن جوهر الانسان فى الواقع الفعلى هو « مجموع كل العلاقات الاجتماعية » (٢) •

ويبدو للوهلة الأولى أن مجموع العلاقات الاجتماعية شىء يقع خارج الانسان ويوجد بجانبه ، وهنا يبرز السؤال : كيف يمكن ان يكون جوهر موضوع ، أو شىء ما من الاشياء يوجد منفصلا عنه ؟ وهذا هو وجه التعقيد فى الأمر ، فلا يمكن النظر الى المجتمع كشىء يوجد منعزلا عن الناس ، وانما هو عبارة عن أناس تربطهم علاقات معينة • فلا وجود لمجتمع بمعزل عن هؤلاء

---

(١) ك ماركس و ف • انجلز • المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٢٩٧ *

(٣) ك • ماركس و ف • انجلز • المؤلفات ، المجلد ٣ ص ٣ *

الناس ، كما لا وجود للناس خارج العلاقات الاجتماعية • ولا يمكن فهم هذا او ذاك كل على حدة . فالانسان خارج العلاقات والروابط الاجتماعية يكف عن كونه انسانا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة •

وهكذا ، لكى نعرف ما هو الانسان لا يكفى أن نقارن بين الأفراد ونبحث عن الشيء المشترك بينهم جميعا • علينا أن ندرس من جميع الوجوه ، الروابط والتفاعلات ، ومجموع العلاقات الاجتماعية ، وقوانين تطور المجتمع ككل وحياة الفرد فيه • وقد وفق الفيلسوف السوفييتى أ . أيلنكوف فى صياغة هذه القضية فى قوله : « يمكن النظر الى جوهر الانسان لا فى الصفات العامة لدى الفرد ، بل فى مجموع مسار الحياة الاجتماعية وفى قوانين تطورها . اننا نطرح مسألة الطبيعة الانسانية المحددة ونجيب عنها باعتبارها مسألة مرتبطة بتطور أنظمة العلاقات الاجتماعية أى علاقة الانسان بالانسان وبالطبيعة » .

ويترتب على التصور الماركسى عدد من النتائج المهمة هى : لا يوجد انسان بصفة عامة خارج علاقات الزمان والمكان ، وأن مجموع العلاقات الاجتماعية الذى يشكل جوهره ليس شيئا ثابتا وأبديا فهو يتغير مع تطور المجتمع • وهذا يعنى أن الانسان يتغير بتغير العصور التاريخية ، والبيئة الاجتماعية وتبعا للطبقة أو الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها ، ولذا يمكن الحصول على مفهومات محددة عن الانسان بدراسة روابطه الواقعية وعلاقاته بالآخرين : اخوانه فى الطبقة واعدائه الطبقيين وبالشعوب والقوميات الأخرى ، وممثلى القوى الاجتماعية التى تمارس السيادة الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية •• وبتحليل التناقضات الواقعية فى حياة الناس • وهذا يعنى أن معرفة وكشف جوهر الانسان انما يتم ببحث النشاط الانسانى والظروف الاجتماعية لحياة الناس وتطورهم التاريخى •

نظام « الانسان ـ العلاقات الاجتماعية »

لقد تنبأ ماديو القرنين السابع عشر والثامن عشر بامكان دراسة الانسان وفقا لهذا المنهج . وقد افترض الكثيرون منهم ، ان الانسان الى حد كبير ـ ان لم يكن كلية ـ نتاج الظروف اى تلك الظروف التى تحيط بالحياة ، كالمنشأ الاجتماعى والتعليم والملكية والوضع العائلى ، والحروب والثروات والأفكار السائدة فى المجتمع ودرجة تطور الفنون وما الى ذلك . ان هذه المقولة التى تقول بأن الانسان نتاج « للظروف » تحمل بلا شك طابعا ماديا لكونها تعترف بتوقف وارتباط حياة الانسان بظروف موضوعية وتفتح بذلك آفاقا عملية لدراسة جوهر الانسان لأنها توجه اهتمام الفلاسفة نحو هذه الظروف . ولكن هذا يظل امكانية فقط . ولكن ها هى التناقضات المرتبطة بهذه الطريقة تتكشف بصورة مباشرة وقوية .

عند الاجابة عن هذا السؤال رفض الماديون مقدما الأجوبة التى لا يمكن أن تقبلها عقيدتهم المادية ، مثل القول بأن « الظروف » من صنع الله ، وافترضوا أن « الظروف » تنشأ فى أثناء قيام الأفراد بنشاطهم لبلورة أهدافهم ، بل ان الفرد نفسه ـ ان لم يكن بصورة كلية فهو الى حد كبير ـ نتاج « للظروف » التى يصنعها . أن هذه « الظروف » هى التى تصوغه . وعليه فان الفرد متوقف على « الظروف » التى يصنعها هو بنفسه . ولكن هل لنا أن نتساءل من منهما يصنع الآخر . هل يصنع الفرد « الوسط » أم أن الوسط يصنعه ؟ هل الانسان سبب الأحداث التاريخية وصانعها أم هو ليس الا من نتائجها ؟

ان هذه الأسئلة لا توضح كل الصعوبات التى ينطوى عليها هذا الرأى . فاذا كان الانسان ينشط دائما وفقا لمصالحه وأهدافه مخضعا لها كل أعماله وباسمها يعيد تشكيل العالم

المحيط به مثل الطبيعة والمجتمع ، فكيف نفسر ما نراه كثيرا من تنافر وتعارض بين غاياته ومقاصده ونتائج نشاطه . كيف نفسر ما يحدث كثيرا فى التاريخ ، من تعارض بين توقعات الناس والنتائج الفعلية لاعمالهم ؟ وفوق ذلك فان هذه النتائج لا يمكن حتى التنبؤ بها . ولقد ساق انجلز أمثلة مقنعة على هذا فقال : « ان الناس فى أرض الرافدين واليونان وآسيا الصغرى وفى أماكن أخرى اقتلعوا الغابات للحصول على أراضى صالحة للزراعة ولم يخطر ببالهم ان عملهم هذا ، كان بداية لوجود الصحارى الراهنة فى هذه البلدان فقد حرموها بحرمانها من الغابات من مراكز تجمع وحفظ الرطوبة .. ولم يدر الذين نشروا البطاطس فى أوروبا أنهم ينشرون داء الخنازير مع حبات البطاطس الكثيرة الدقيق » (١) .

وأصعب من ذلك التنبؤ بالعواقب الاجتماعية لتصرفات وأعمال الناس . ويمضى انجلز قائلا : « لقد تحدثنا عن البطاطس وما رافقها من انتشار داء الخنازير ، ولكن ما عسى أن يكون داء الخنازير بالمقارنة بتلك العواقب التى أحاقت بحياة جماهير الشعب والتى تسببت عن كون البطاطس الغذاء الوحيد لها ؟ ماذا عسى أن يعنى داء الخنازير بالمقارنة بالمجاعة التى ألمت بأيرلندا فى ١٨٤٧ نتيجة لداء الخنازير وساقت الى القبور الملايين التى اقتصر غذاؤها على البطاطس ، أو كاد ، وأجبرت مليونين على الهجرة الى ما وراء البحار » (٢) .

اذن فلهذه « الظروف » منطق تطورها الخاص والتى لا يملك الانسان دائما قدرة التأثير فيها أو لايعرف اليه سبيلا ، وهى

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ص ٤٩٦ .

(٢) ك . ماركس و ف . انجلز . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ص ٤٩٧ .

التى تحدد وترسم كل نشاطه . ولكن ما هو الانسان هل هو خالق ام مخلوق ، هل يصنع « الظروف » أم تصنعه الظروف ؟

لقد نشأت هذه التناقضات لانه ليس بالامكان تجنبها فهى كامنة فى مقدمات ومنطلقات الماديين السابقين . لقد وضعوا « الظروف » فى مواجهة الناس كشىء خارجى بالنسبة اليهم ولنشاطهم . ونتج عن ذلك ظهور مشكلة استعصى حلها بالنسبة لكل الفلسفة القديمة ألا وهى مشكلة العلاقة بين نشاط الانسان وظروف هذا النشاط ، اى نظرية « الوسط » أو « البيئة » أو « الظروف »

وفى هذا المجال أيضا يرجع الفضل فى تخطى تناقضات هذه المشكلة الى ماركس وانجلز . لقد كتب ماركس ١٨٤٤ يقول « ان المجتمع ينتج الانسان كانسان بالقدر الذى ينتج الانسان المجتمع » (١) .

ربما يبدو ان هذه النظرة بعث للتناقض القديم : الانسان ـ خالق « الظروف » والظروف تضنع الانسان . والأمر هنا فى الواقع مختلف عن هذا . نعم . الانسان يخلق عالمه وتاريخه وخلافا للطبيعة كل هذا « من صنعنا » والقضية هنا فى ان الخالق وابداعه مفهوم بصورة مغايرة لفهم المذاهب الفلسفية الأخرى . ان اساس الابداع التاريخى ليس وعى الفرد المنفرد أو الوعى بصفة عامة وليست « فعالية » خالصة لا موضوع لها تعادل الاستبداد المحض ، كما هو الحال لدى المثاليين . كما انه ليس محاولات الفرد المنعزل عن الاخرين والذى يتمتع بالفطرة ، بكل الملكات الانسانية الضرورية كما كان الحال لدى الماديين قبل ماركس . ولقد أشار الى ان صناع التاريخ الحقيقيين « انما هم الافراد ، الذين ينتجون ويعيدون الانتاج من خلال ترابطهم » (٢) .

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، الاولى ص ٥٨٩ .
(٢) ك. ماركس و ف. انجلز . المؤلفات ، االمجلد ٤٦ القسم ٢ ص ٢٢٢ .

ان صناعة التاريخ والابداع بصفة عامة يمثلان أمامنا نشاطا للانسان الاجتماعى ، الذى لا ينشط منعزلا بل مع افراد المجتمع ويفترض هذا النشـــاط قيام علاقة اجتماعيـــة ثابتة ومتطوره ، والواقع ان قواعد السلوك والروابط المتبادلة بين الناس اوجدها الناس خلال التاريخ السابق لحياة أى فرد على حـــدة . والفرد يستوعب هذه القواعد وينقلها لا بطريقة سلبية بان يحفظها عن ظهر قلب بل بالاندماج فى خضم النشـــاط الاجتماعى . ويجرى هذا اولا فى الاسرة والمدرسة . ان يتعلم الوليد منذ اللحظة الاولى كل ما يجعل منه انسانا ، مثل الوظائف البسيطة كالاكل والنوم واستخدام الأدوات البسيطة فى الحياة اليومية ، والمشى ومن باب أولى الكلام والتفكير . وتعلم الفرد النشاط وفقا للقواعد الموجودة يتحول الى نشاط انتاجى فى الحياة الاجتماعية وكفاح فى سبيل الطبقة التى ينتمى اليها والشعب والدولة . ويتكرر تكوين هذه القواعد كما كانت تنشأ كل مرة من جديد بالنسبة لكل فرد وكما لو كانت هى نشاطه الخاص . وهذا يعنى ان العلاقات الاجتماعية والمجتمع نفسه ليس شرطا خارجيا لنشاط الانســـان انما هو محتواها الباطن . والانسان لا يقيم « ظروفا » مجردة لان عالمه الواقعى هو مجمـــوع ما يحيط بـــه من أدوات وكل العـــلاقات الاجتماعية .

ويكمن السبب الاساسى للخلاف بين الماركسية والمذاهب الفلسفية السابقة فى كونها استطاعت ان تصف وتحلل بصورة محددة « الظروف » السيئة الصـــيت . ومن الطبيعى ان يكون نشاط الانسان مشروطا بالعالم الذى صنعه . ولكن هذا لا يشبه ذلك الارتباط البسيط والتوقف على « الظروف » الذى لاحظه الماديون الســـابقون ، بل هو ذلك المسار الواقعى لعمليـــة تغيير الطبيعة والمجتمع والتى يتغير خلالها الانسان نفســـه .

وفقا لهذا الفهم لا يغدو وجود منطق التطور الخاص « للظروف » مناقضا على توقفها على نشاط الانسان . فكل جيل من الناس يبدأ حياته فى ظروف محددة اوجدها الجيل السابق ، وهذا الجيل الجديد سيخلق بدوره ظروفا للاجيال التى تليه . ويخضع تعاقب الظروف لقوانين مستقلة عن ارادة ورغبات كل جيل . ولهذا كان حتما على الناس ان يندمجوا فى العلاقات الاجتماعية الجاهزة ، ويحولوها الى ظروف لنشاطهم الخاص وهذا يتيح لهم امكانية تشييد شيء جديد ، والرقى باستعداداتهم وعاداتهم ومعارفهم .. الخ . وفى هذه العملية فقط يتطور الانسان ، ويشكل جوهره .

وهكذا فالانسان و « الظروف » ليسا طرفين متناقضين ، بل وحدة ضرورية تشكل « الواقع الانسانى » و « عالم الانسان » وجوهره الاجتماعى الواقعى ، ولذا فان تأثير « الظروف » ليس الا نشاط الانسان فى تجسدها المادى والموضوعى ، فالمؤثر هنا ليست الاشياء او الظروف الاجتماعية بل الناس بمساعدة الاشياء التى أوجدوها والتى لم يوجدوها ، فى ظروف أوجدتها الاجيال السابقة . لقد كتب ماركس : « وجود الناس نتيجة لتطور ومسار الحياة العضوية . وعند مرحلة معينة من هذه العملية فقط غدا الانسان انسانا . وطالما وجد الانسان ، فهو باعتباره بداية متجددة للتاريخ البشرى ، نتيجة ونتاجا مستمرا له أيضا ، والانسان يكون فقط مقدمة كنتاج وحصيلة لذاته » (١) .

اى ان نشاطه هو الذى يخلق منه تلك البداية المتجددة للتاريخ البشرى .

وهكذا يغدو الانسان مقدمة وشرطا لكل الحركة الاجتماعية ونتاجا لها فى نفس الوقت . وهذا يعنى أن موضوع بحثنا ليس

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز . المؤلفات ، المجلد ٢٦ القسم ٣ ص ٥١٦ .

الانسان والمجتمع كلا على حدة بل الكيان العضوى « الانسان ـ العلاقات الاجتماعية » . انه لخطأ فادح وجسيم أن نبحث طرفا واحدا من هذا الكيان فنقتصر اما على تأثير الانسان فى « الظروف » أو على تأثير الظروف فى الانسان . وهذا الكيان الذى نتحدث عنه هو نظام عضوى يتوقف كل طرف فيه على الاخر . ووفق شروط كهذه يكون النظام او الكيان بمثابة نظام يتمتع بقدرة على النمو الذاتى فلا يحتاج فى تطوره الى اية عوامل خارجية ، فهو ينطوى فى ذاته على مصدر لنمو الجديد ويصنع شروط وجوده وتغييره .

ويلزمنا هنا لمعرفة سر الوجود الانسانى ان نبحث على الاقل فى جوهر قانون حركة هذا الكيان العضوى وعالم الانسان الواقعى ومجموع علاقاته الاجتماعية .

عالم الانسان

الانسان كما قال ماركس « ليس كائنا مجردا ملقى فى مكان ما خارج العالم . وان كلمات الانسان ـ **عالم الانسان** ، الدولة ، المجتمع » (١) تصف بصورة دقيقة خصائص الطريقة الماركسية فى معالجة مشكلة جوهر الانسان .

جسم الانسان « غير العضوى »

وهكذا فالدولة والمجتمع ليسا « وسطا » او « بيئة » خارجية يجرى فيها نشاط الانسان . انهما يشكلان محتوى هذا النشاط ولذا فهما من **عالم الانسان الداخلى** .

واذا اردنا ان نعرف حيوانا من الحيوانات فعلينا ان ندرس

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، المجلد ١ ص ٤١٤ .

خصائصه التشريحية والفسيولوجية . وتحليل عالم الانسان يفترض دراسة « تشريح » « وفسيولوجيا » جسم « خاص » وحسب تعبير ماركس « جسم غير عضوى » . فما هو هذا الجسم ؟

يحتاج الانسان بجانب الخبز والمسكن الى الكثير من ثروات الطبيعة ومنجزات المدنية التى صنعت طوال القرون ، ولا يمكن بدونها ان تتصور وجود الانسان الراهن ، كالحديد والنحاس والقطن والكهرباء والنفط والاورانيوم ، والمؤسسات الاجتماعية والعلم والفن رالمبادىء الاخلاقية وقوانين الدولة . هكذا ينشأ كيان أو « جسد المدنية » الهائل باعضائه المتخصصة والتى تشبه الجهاز العصبى بمراكز للاستقبال ، والذاكرة .

ويشكل هذا « الجسد » بما يحتويه من اشياء وانتاج ومؤسسات وعلاقات ، عالم الانسان . وعلينا ان ندرسه هو بالذات لنعرف ما هو الانسان وما هى رغبات وأهداف الناس ومصالحهم ومطالبهم وما تحت ايديهم من وسائل وامكانيات .

فلنتخيل وضعا غريبا وخرافيا تنعدم فيه كل الادوات التى تعودنا على استخدامها كل يوم وكل ثانية . وليس من الصعب ان نتصور أنه لن يعيش الانسان بصورة « أردأ » فى هذه الحال بل لن يستطيع العيش وان استطاع فليس بصفته انسانا . فبدون الاستخدام المستمر للادوات التى صنعها الانسان ، والاختلاط بالناس هذه الكائنات التى تسمى
(الانسان العاقل) لن يكون الانسان انسانا أو عاقلا .

ونجد فى علم الاجتماع « جسما » خاصا للانسان ولم تمنحه الطبيعة باى حال من الاحوال هذا الجسم ،وفوق ذلك فهو ينمو وفقا لقوانين مختلفة عن قوانين الطبيعة ولذا وصف بدقة بانه « جسم غير عضوى » . ويكمن جوهر الانسان فى « تشريح » و « فسيولوجيا » هذا الجسم . ولهذا السبب ظل هذا الجسم مستعصيا على فهم فلاسفة الماضى لان « تشريح » و « فيولوجيا »

« الجسم غير العضوى » للانسان اى قوانين حياته الاجتماعية كانت كتابا مغلقا بالنسبة لهم .

فما هى اذن قوانين نشاط « جسم الانسان غير العضوى » انطلق ماركس عند الاجابة عن هذا السؤال من نقطة اهملها معظم من سبقه وهى ان الناس يجدون ظروفا محددة لحياتهم ، (جزء منها جاهز وآخر يكونونه بأنفسهم) ، ولديهم المطالب المعروفة كالاكل والشرب والملبس . وللحصول على هذه المواد التى تقع فى العالم الخارجى ، عليهم ان ينشطوا ويؤثروا فيه لكى يلبوا مطالبهم عن طريق استهلاكها وبهذا النشاط الذى هو نشاط انتاجى بالدرجة الاولى يصنع الناس العالم المحيط بهم ، اى « جسم الانسان غير العضوى » ويخلقون تاريخهم . وهذا يعنى ان الناس يخلقون الجوهر الاجتماعى ، وهو نفسه جوهر كل فرد ، ونشاطه الخاص .

وتتشكل فى اثناء هذه العملية ، عملية انتاج الثروات المادية والروحية كل مظاهر نشاطهم الحيوى بتغييراته المختلفة ، ويتكون فى نفس الوقت ويتطور جوهر الانسان . ويجب الا ننظر الى وسيلة الانتاج هذه باعتبارها تجديدا لانتاج وجود الأفراد العضوى لأن الانتاج هو بصورة ادق نوع محدد من نشاط هؤلاء الأفراد ، انه نمط حياتهم » (١) .

وهكذا فالنشاط والنشاط الانتاجى بالدرجة الاولى هو وسيلة وجود « جسم الانسان غير العضوى » ، وهذا يعنى انه عند دراسة « تشريح » وفسيولوجيا هذا « الجسم » يجب أن تكون نقطة البدء هى دراسة قوانين الحركة لهذا العالم الذى يخلقه نشاط الانسان .

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز . فويرباخ تناقض النظرة المثالية والمادية « النشر الجديد للباب الاول من « آلايديولوجيا الألمانية » ص ٢٣ » .

الحيوان الذى ينتج ادوات العمل

ان كل مظاهر الحياة المختلفة بجوانبها المتعددة انما هى اشكال للنشاط الانسانى . وفى هذا تجد الطبيعة الحيوية للانسان باعتباره كائنا نشيطا ، تعبيرا عنها فى جميع المجالات . وفى هذا الشأن ويمكن الحديث عن نشاط الخراط والفنان والسياسى والمربى ، والعمل الذهنى والبدنى وعن فرق الهواة الفنية والبستنة .. الخ .. الخ . ولكن لكى ندرك بالتحديد جوهر الانسان لا يكفى ابدا أن نكتشف ما هو عام ومجرد وما يميز اى نشاط ، بل علينا ان ندرك ما يوضح الصفات المتشابهة لمظاهرها المختلفة . فلا بد من البحث عما هو عام ومشترك ويربط نشاط واعمال كل فرد بنظام موحد للنشاط الحيوى الانسانى ولابد من اكتشاف هذا الوجه من أوجه النشاط الذى يشكل اساسا ومصدرا لكل المظاهر الاخرى ، وهذا النوع من النشاط هو العمل فى مجال الانتاج المادى وبالدقة انتاج ادوات العمل . ويوافق ماركس موافقة تامة على تعريف السياسى والعالم الأمريكى ب . فرانكلين للانسان بانه حيوان ينتج أدوات العمل .

وربما يدعو هذا القول الى تساءل البعض فى حيرة قائلين ! اذن فالناس الذين لا يصنعون ادوات العمل لا ينتمون الى الجنس البشرى ؟ لان الناس فى فجر التاريخ البشرى كانوا جميعا يصنعون ادوات العمل . اما اليوم فاستنادا الى هذا القول لا يمكن ان نسمى الفلاح انسانا طالما هو لا ينتج ادوات العمل بصورة مباشرة بنفسه !

ولكن ماذا سنقول عن الفنان او الشاعر ؟ عند حل هذه المسألة علينا ان ناخذ بنظر الاعتبار ان انتاج ادوات العمل ليس فقط وجها من أوجه النشاط الانسانى المتعددة بل هو اساس كل مظاهر النشاط المتعددة . ولذا فنحن عندما نقول ان انتاج ادوات

العمل صفة مميزة للنشاط الانسانى نقصد بذلك اولى صور النشاط تاريخيا والذى بفضله اصبح الانسان انسانا وطور خصائصه الانسانية المحضة ومن هذه البذور نما كل ما هو انسانى فى الانسان . وبعد ذلك تكونت على هذا الاساس صور النشاط بعيدة عن انتاج وسائل الانتاج كالابداع الفنى مثلا .

اذن ما هو دور العمل على وجه التحديد فى تاريخ الانسان والمجتمع ؟ وما هو محتواه الحقيقى ؟ وهنا علينا ان نبدأ من القول بان الانسان انما يلبى حاجاته ومطالبه الحيوية الضرورية من ماكل ومشرب ومسكن بالعمل وحده . ولكن انتاج ادوات الاستهلاك لا يستغرق كل طاقات العمل والنشاط ويصبح العمل الشرط الاول الاساسى لكل الحياة الانسانية ، الى درجة يمكن معها القول بصورة او باخرى « بان العمل خلق الانسان نفسه » (١) . فقد تمكن الانسان من البقاء نتيجة تعلمه تحويل وتشكيل مواد الطبيعة وليس بتكيفه معها فقط ، وكذلك باخضاعها له وتطويعه اياها لمطالبه واهدافه ، اى انه تعلم ان يكدح وينتج . ويبرز بهذا الصدد سؤال على جانب من الأهمية وهو عن علاقة الانسان بالطبيعة .

ان كون الانسان يتشكل انسانا ويوجد فى المحتمع لا ينفى روابطه الوثيقة بالطبيعة . ان الانسان نتاج الطبيعة وجزء منها فقد نشأ منها وهو مدين لها بالكثير . وفوق ذلك انه ليس الا

---

(١) من المشهور مثلاً انه اذا عاش طفل طبيعى التكوين من الناحية البيولوجية بين قطيع من الحيوانات (وقد وقعت حوادث من هذا النوع وبعضها موصوف بدقة تسجيلية فى ادبيات خاصة) فسرعان ما يفقد الصفات الانسانية ان كانت لديه او يتعذر عليه اكتسابها وعند عودة هؤلاء الى المجتمع لا يستطيعون ان يكونوا اناسا بمعنى الكلمة . ان التأثير « النقى » للطبيعة فى الانسان غير قابل للعلاج او التعديل »

« قوة الطبيعة » . ولكن هذا النتاج الخاص بالطبيعة والقوة المتميزة لها ليست مثل قوى الطبيعة الأخرى . ان خاصية الانسان المميزة هي العمل قبل كل شيء وبالدرجة الاولى . ان القدرة على العمل هي اكثر الفوارق جوهرية في تمييز الانسان عن الحيوان كنتاج « نقي » للطبيعة . وللتدليل على هذه الفكرة سوف نلجا الى حقيقة علمية ثابتة وهي : ليس بين الصفات الانسانية صفة واحدة فطرية (ليس فقط القدرة على الكلام او التفكير .. الخ ، بل حتى المشي بقامة منتصبة) (١) .

وكل هذه الخصائص تتكون بالقدر الذي يشترك فيه الانسان في الحياة الاجتماعية وعلى وجه الخصوص في النشاط الانتاجي . انه لا يتميز عن الطبيعة بفضل العمل فقط بل انه يكون علاقاته بها في اثناء النشاط العملي . لقد كتب ماركس : « ان العمل قبل كل شيء عملية بين الانسان والطبيعة ، تتم خلالها من قبل الانسان استخدام وضبط وتوجيه عملية التغير الحيوي بينه وبين الطبيعة » (٢) .

دهاء العقل

تمكننا الخبرة الاولى بالعمل من تمييز ثلاثة من جوانبه على الاقل . هناك موضوع للعمل دائما وهذا شيء طبيعي ، ولذا يفترض العمل دائما وجود موضوع له ينتزعه العمل من وضعه الطبيعي مثل صيد السمك ، وقطع الاشجار واستخراج المعادن من باطن الارض . وربما يكون موضوع العمل قد عولج بواسطة عمل سابق مثل خام معدن مستخرج او الواح الخشب . ويمارس الانسان عمله ليغير هذه المواد على الوجه الذي يتناسب مع اهدافه ومطالبه

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلز . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ص ٤٨٦ .

(٢) ك. ماركس و ف. انجلز . المؤلفات ، المجلد ٢٣ ص ١٨٨ .

اذن فالتأثير والتفاعل المتبادل مع الطبيعة يفترض ايضا عملا هادفا ، او فلنقل العمل .

كيف اذن يتحقق هذا النشاط الهادف ؟ يبذل الناس فى اثناء العمل طاقاتهم الجسدية والروحية ، وارادتهم ، وقدراتهم ومهاراتهم فيجسدون كل هذا فى موضوع العمل ، ويضعون عليه صفات انسانية . ولان الانسان يستخدم قواه الجسدية الطبيعية مثل تحريك يديه وقدميه ورأسه واصابعه ، تصبح اعضاء جسم الانسان تاريخيا اولى ادوات العمل . وقد كانت فى البداية ادوات غير متطورة كما انها ـ وهذا له اهميته ـ لا تحتوى على خصائص وسمات انسانية بحتة .

ويلبى الانسان مطالبه بمساعدة الطبيعة : ومنها فقط يستمد الانسان وسائل متطورة لبلوغ اهدافه . ولكن الانسان لا يجد كل ما يحتاج اليه جاهزا فى الطبيعة . لأن الطبيعة لا تستطيع ان تجهز حتى فأسا بسيطا فضلا عن مفاعل ذرى او جهاز سيبرناطيقى ، ومن ثم يخترع الانسان ادوات العمل ليدفع الطبيعة الى الافصاح عن كل امكانياتها وذلك بممارسة تأثيره فى موضوع العمل . وفى هذا يتجلى دهاء العقل وجبروته .

ولا يمكن السيطرة على الطبيعة بتجاهل قوانينها ، لأن النشاط الذى يتناسب ويتوافق مع قوانين الطبيعة هو وحده الذى يقود الى النجاح ويحقق للانسان اهدافه . فعلى سبيل المثال يتم احتراق الحطب فى الآلات البخارية وفقا لنفس القوانين التى تحترق بها الغابات كما يتحول الماء الى بخار فى المرجل تماما كما تحول اشعة الشمس الشديدة الماء الى بخار وان حركة الكباس وآلية نقل الحركة التى تنظم حركة العجلات فى القاطرة البخارية لا تخرق اى قانون من قوانين الميكانيكا . ولكن الانسان باستخدامه للخصائص الميكانيكية والفيزيائية والكيمائية يجبرها على العمل بما يمكنه من الوصول بها الى تحقيق اهدافه ، بينما لا تستطيع

كل هذه الخصائص ان تعطى النتائج المطلوبة بمفردها . اليس من الدهاء ارغام الاشياء على التفاعل وفقا لقوانينها الخاصة ، وجعلها فى نفس الوقت تحقق اهداف الانسان ، والسيطرة عليها بالخضوع لها ؟ ان « نتاج » هذا الدهاء هى أدوات العمل اى الاشياء الطبيعية المستخدمة وفقا لخصائصها الطبيعية وصفاتها المميزة للتأثير فى اشياء أخرى تكون موضوع العمل ، ووسائل العمل هى شىء أو وحدة مركبة يصنعها الانسان بينه وبين موضوع العمل لتكون وسيطا ينقل تأثيره اليه .

ويجسد الانسان فى وسائل العمل مواهبه وعاداته ونشاطه من جهة ، ويحقق من جهة أخرى الخصائص الطبيعية لأدوات العمل التى سبق انتاجها . كما ان النشاط الانسانى يحيى كل الامكانيات الكامنة فى الطبيعة ، ويحول ثرواتها غير المتناهية الى شىء قابل للفهم ومكرسا لخدمة الانسان .

ان صنع واستخدام وسائل العمل وبالدرجة الاولى أدوات العمل صفة مميزة للنشاط الانسانى الهادف . وهو الجانب من نشاط الانسان الذى يعبر عن علاقة الانسان بالطبيعة يتجسد فى تطور قوى الانسان المنتجة ، فان الذى يحقق الاتصال بالطبيعة ليس أدوات العمل بصورة مستقلة بل هو الانسان الذى يستخدمها . وهذا يعنى أن وحدة الانسان وأدوات العمل التى تحققت تاريخيا ، هى التى تصنع قوى الانتاج . والانسان وحده هو الذى يصنع ويطور ويحسن أدوات العمل ووسائل استخدامها والمهارات والاساليب العملية . وتتطور القوى المنتجة فقط فى مجرى النشاط العملى للانسان ، وفيه ايضا يصنع الانسان الوسائل الضرورية لتحقيق الاتصال بالطبيعة والنتائج العقلية لهذا الاتصال .

ونصل مما تقدم الى ما يلى : ان التكنيك اى أدوات ووسائل العمل ، لا يمكن أن يحدد بمفرده كل الخصائص المميزة للنشاط

الحيوى ، انه لا يجلب له لا ضررا ولا نفعا . بل ان الامر يتوقف على النـاس الذين يستخدمون التكنيك فى عملهم لتحقيق مطالبهم .

العمل والعلاقات الاجتماعية

كل ما قلناه يستنفذ دور العمل فى حيـاة المجتمع ، وكانت البدايات الاولى لتوحيد المجهودات العملية لدى أسلافنا فى فجر التاريخ هى الوسـيلة الضرورية لبقائهم . لانه لم يكن فى وسع الافراد المنعزلين مغالبة قوى الطبيعة الجبارة والمخيفة . ولا يتعلق الامر هنا بضعف الانسان فقط بل لأن النشاط العملى للانسان لا يمكن ان يكون فرديا ، اذ لا بد من القدرة على النشاط واستخدام أدوات العمل وفقا لخبرات جاهزة الا وهى اتقان وسائل العمل كما أن مواصفات وقواعد نشاط الآخرين شرط ضرورى سابق على قدرة الفرد على العمل المستقل .

وهذا يعنى ان على الانسان أن يعقد الصـلات مع الناس فى المجتمع . وليس شرطا أن تكون هذه الصلة مباشرة ، لان نتاج النشاط العملى التى هى تجسيد لمعارف وقدرات واستعدادات فرد بعينه تغدو « وسيلة » أو « رابطة » لربطه بالافراد الآخرين فى المجتمع وان كل ما نستخدمه من أدوات يشكل دائما حلقة وصل وارتباط بين نشاطنا ونشاط الآخرين ، ويبدو كما لو كان ينقل الينا اشارات من كثرة كثيرة من الناس . ان تناول الانسان قطعة خبز على مائدة الافطار وهو عمل غاية فى البساطة يتوقف على عمل الخباز وهذا ما نطلق عليه صلة الفرد بآخر . فكل خطوة نخطوها بمثابة صلة مستمرة بالآخرين : المواصلات فى المدينة تربطنا بالذين صنعوا الاوتوبيسات وبالسائقين وبمنظمى المرور ، كما نكتسب عادات ومعارف أولية مثل مراعاة واتباع قواعد المرور . وعندما

ننتج بعض الادوات فنحن لا ننتجها لانفسنا (فى المجتمع المتطور ننتج بالدرجة الرئيسية للآخرين) بل للآخرين ، ونقدم لهم بذلك جزءا من معارفنا وقدراتنا . ونحن لايمكن أن نعيش ونعمل ونفكر ونستمتع ونفرح ونحزن الا بالاتصال والتأثير المتبادل فيما بيننا وبدون هذه العلاقات التى نعقدها مع الآخرين لا نستطيع ان ننتج ، بل ولا نستطيع حتى مجرد الوجود . ويعقد الناس الروابط والصلات فيما بينهم من خلال نشاطهم وكنتيجة له وتدعى هذه الصلات بالعلاقات الاجتماعية . وهى متنوعة مثل تنوع اوجه نشاط الانسان ، وفى هذا النشاط تصاغ وتتشكل مجموع العلاقات بين الناس مثل أشكال الملكية ، والتوزيع ، والعلاقات السياسية والقانونية والاخلاقية وشتى أنواع القواعد الاجتماعية . كما تصاغ وتتشكل العلاقات المختلفة التى يجرى فى ظلها الابداع العلمى والادبى والفنى ، وبتطور من خلالها الثقافة والرياضة .

وهكذا فان الحياة الانسانية هى نتائج الوسائل والمتطلبات المعيشية ،وكذلك العلاقات الاجتماعية العديدة الجوانب . كما ان النظم المعقدة تقوم وفق قوانين معينة للنشاط الانسانى تلائم تنوع وغنى العالم البشرى و « الجسد غير المحدود » للانسان .

ويتضح أن أساس التطور الاجتماعى وقاعدته هو الانتاج المادى وبالأخص انتاج أدوات ووسائل العمل التى لها تأثير معين على كافة ظروف الحياة الاجتماعية للانسان . وتحدد قوى الانتاج بشكل أساسى وحاسم تلك العلاقات الاجتماعية ، التى يكونها الناس فى عملية انتاج الثروات المادية ــ العلاقات الانتاجية ، ويمثل هذا الاستنتاج الاكتشاف التالى الهام الذى توصل اليه ماركس وهو : « ان الناس يدخلون فى الانتاج الاجتماعى لحياتهم فى علاقات محددة وضرورية خارجة عن نطاق ارادتهم الا وهى العلاقات

الانتاجية ، التى توافق درجة محددة من تطور قواهم الانتاجية المادية » (١) .

ويتحدث بليخانوف فى احد مؤلفاته عن قبيلة احتفظت حتى القرن التاسع عشر ببعض سمات نمط حياة المجتمع البدائى ، وقام العلماء بدراستها . وكان افراد هذه القبيلة التى كانت تعيش فى احط مستويات التطور الاجتماعى لا يعرفون بعد صنانير وشباك صيد الاسماك . وكانوا يصطادون السمك بأن تدخل مجموعة كبيرة من افراد القبيلة الى الماء ، ويقفون فى صف متماسك ، ثم يتحركون نحو الضفة وهم يدفعون أمامهم فى تجاه الساحل الاسماك التى تعترض طريقهم وبعد أن يحصروا اكبر عدد ممكن من السمك فى منطقة ضحلة من الماء يمسكون السمك بأيديهم .

يتضح من هذا ان قوى الانتاج لدى هذه القبيلة هى قوى بدائية الى اقصى حد وهى التى تؤثر بصورة حاسمة فى خصائص علاقاتهم الانتاجية . وفى ظل ظروف كهذه لا يمكن ان توجد الملكية الخاصة . فمن يستطيع ان يستولى على ما امكن الحصول عليه بالجهود المشتركة لكل افراد المجموعة ، وهو بالكاد يلبى مطالبهم ؟ وفوق ذلك فان جميع افراد القبيلة يقومون فى الاساس بوظائف واحدة ولذلك لا يتمتع احد منهم باية امتيازات ويترتب عَلى هذا عدم وجود الاغنياء والفقراء (فاذا جاعت القبيلة لسبب او لآخر فان جميع الافراد يعانون الجوع) كما لم يشهد مثل هذا المجتمع اى انقسام الى مجموعات وكتل اجتماعية فضلا عن الطبقات . وهكذا نجد ان علاقات الملكية وعلاقات توزيع الثروة المادية والعلاقات بين المجموعات داخل المجتمع (وكل هذا فى مجموعه يكون علاقات الانتاج) يتوقف بصورة مباشرة على مستوى تطور قوى الانتاج .

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، ج ١٣ ، ص ٦ .

ويقدم المثال السابق وصفا للمجتمع فى المراحل المبكرة من تطوره . ولكن تأثير قوى الانتاج فى علاقات الانتاج يسرى بنفس الصورة فى المراحل التالية من تاريخ البشرية . وانطلاقا من هذه النقطة يمكن ان نوضح لماذا تعانى اليوم على الارض بعض الشعوب من التخلف الاقتصادى والثقافى بينما تبلغ شعوب اخرى مرحلة راقية من الرخاء المادى .

ان دراسة بقايا وسائل العمل والادوات القديمة ذات اهمية بالغة لدراسة النظم الاجتماعية والاقتصادية الغابرة وهى تعادل فى اهميتها دراسة تركيب الانواع المنقرضة من الحيوانات . فالمراحل الاقتصادية لا تتميزعن بعضها البعض بما تنتجه ، بل بالطريقة التى يتم بها الانتاج ، اى بوسائل العمل ، ووسائل العمل توضح لنا تلك العلاقات الانتاجية التى كان يجرى العمل فى ظلها (١) .

ان قوى الانتاج التى هى قاعدة للعلاقات الانتاجية ، لا توجد وتتطور الا فى نطاق علاقات الانتاج ، بل ان الأجهزة الأخيرة هى الشكل الضرورى لها ووسيلة وجودها ، وقوى الانتاج هى وسيلة النشاط المشترك للناس . كما ان علاقات الانتاج التى تتكون تحت تأثير قوى الانتاج ذات طابع موضوعى اى مستقلة عن وعى الناس وارادتهم . فالناس لا يقيمون حياتهم الاجتماعية ويصنعون تاريخهم وفقا لهواهم ، بل فى ظروف معينة قائمة سلفا هى نتيجة جهود الناس فى العهود السالفة ، ووفقا لها لا رغما عنها ينشط الناس .

وهذه تمثل ميزة خاصة للنشاط الانسانى ، الذى ينتفع دائما بما صنعته الاجيال السابقة . ولا يجرى الحديث هنا عن أدوات

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلز ، المؤلفات ، المجلد ٢٣ ص ١٩١ .

الانتاج فقط وغيرها من وسائل وموضوعات النشاط الانسانى ، بل يتعلق الحديث ايضا بطريقة استخدامها والعادات المجسده فيها وبقوانين وقواعد السلوك الاجتماعى ... الخ . والا أصبح « جسم الانسان غير العضوى » غريبا بالنسبة للاجيال الجديدة من الناس . وتصبح نواميس الطبيعة التى تسيطر عليها الانسانية قوانين نشاط الناس المعاصرين . فالنجاح فى تحويل مواد الطبيعة يتوقف على العمل وفقا لقوانينها .

ولذا فان كل جيل من الناس يصنع شيئا جديدا وذلك وفقا لقوانين نمو داخلية لتطور وتعاقب اشكال ووسائل النشاط . وتوجد مراحل ضرورية للتطور لا يمكن تجنبها تبعا لارادة الناس . وهذا يعنى أن نشاط الانسان ونشاطه الانتاجى على وجه الخصوص يخضع لقوانين موضوعية اى لتلك القوانين التى تعمل مستقلة عن الناس سواء عرفوها أم لم يعرفوها ، او « اعترفوا » بها أم لم يعترفوا ، اعجبتهم أم لم تعجبهم . ولذا فان التأثير المتبادل بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية الذى تحدثنا عنه فى السطور السابقة ، هو قانون لا يمكن ان نلغيه او نغيره .

كما ان النشاط العملى يشكل قاعدة لكل اوجه نشاط الانسان، تماما مثل ما تشكل العلاقات التى تتكون خلال عملية الانتاج اساس كل العلاقات الاجتماعية ، ويتوقف عليها نشوء الطبقات والعلاقات بينها ، وتطور الصراع الطبقى ، وطابع مؤسسات الدولة والاحزاب السياسية . وهكذا كانت نشأة العلاقات الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة ، نتيجة لدرجة معينة فى تطور الانتاج الاجتماعى ، والقوى المنتجة . وقد انقسم المجتمع الى طبقات مع ظهور الملكية الخاصة ، فهناك طبقة تملك وسائل الانتاج واخرى محرومة منها ، ومضطرة للعمل لحساب الاولى . ان تاريخ المجتمع

الانسانى فى ظل الملكية الخاصة يصور لنا علاقات السيادة والاذلال ، واستغلال حفنة من الاغنياء لملايين الكادحين ، وعداء غير قابل للمصالحة بين مصالحهم وصراع طبقى دائم لم ينقطع خلال القرون .

ولا يمكن تجنب حتمية نشوء أجهزة خاصة لابقاء العلاقات الانتاجية فى مصالح الطبقة السائدة كالدولة والشرطة والجيش والموظفين والسجون ، تماما كما انه لا يمكن تجنب النضال الطبقى فى المجتمع . فتحول التاريخ البشرى الى حلبة تصطدم فيها الطبقات والاحزاب المتصارعة وتنشأ الحروب والثورات ويجرى فى نفس الوقت تبادل تجارى وثقافى وسياسى بين الشعوب . ولا تعرف الاطراف المشتركة فى هذه الاحداث أن أساس تناقضاتها هو تطور الانتاج الاجتماعى والتأثير المتبادل بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية .

الوجود الاجتماعى ، والوعى الاجتماعى والانسان

ان ماورد فى السطور السابقة من صور النشاط وما يقابلها من العلاقات الاجتماعية يشكل المسار الفعلى لحياة الناس ووسيلة وجودهم . ولذا فان الحياة الفعلية للانسان هى وجوده الاجتماعى، اى قبل كل شئ هى وسيلة انتاج الثروات المادية وعلى اساسها يتكون الصراع الطبقى ، والمنظمات السياسية ومختلف اشكال الروابط والعلاقات الاجتماعية .

ولكن هذا يشكل جانبا واحدا من نشاط الانسان الحيوى . أما الجانب الآخر منه فهو فهم العلاقات القائمة ، ومعرفة الانسان لمكانه فى العالم ، وعملية نشوء المعارف الانسانية ووسائل الحصول عليها واشكال وجودها . وان الذى يشكل الوعى الاجتماعى للناس

هو الثراء الروحى المتجسد فى العلم والفن ، والقواعد الاخلاقية ، وتصور الانسان للعدل والظلم ، والشرعى وغير الشرعى ، والمذاهب التى تعرف افضل انواع النظم السياسية للمجتمع .

ان اكتشاف ماركس وانجلز الاساسى الخاص بهذا الجانب من نشاط الانسان الحيوى يكمن فى انه اوضح توقف الوعى الاجتماعى على الوجود الاجتماعى ، وتبعية حياة المجتمع الروحية (انتاج القيم الروحية) للحياة العملية اى العمل والانتاج المادى .

ويبدو كما لو انه يمكن الحديث عن علاقة ما هو روحى بما هو مادى بصورة نسبية مشروطة او ميتافيزيقية . فما هى فى واقع الامر علاقة المجالات الروحية كالعلم والفن بالعمل ؟ الحقيقة انه لا يمكن تفسير نشوء العلم والفن وتطورهما بمعزل عن كل النشاط الاجتماعى الخصب للانسان .

اذن كيف يتجلى بصورة محددة توقف الوعى الاجتماعى على الوجود الاجتماعى ؟ اين اساس وجذور هذه التبعية ؟ علينا ان نبحث عن الاجابة فى تحليل نشاط الانسان فى العمل . لقد لاحظ ماركس ان « العنكبوت يقوم بعملية تذكرنا بعمل النساج ، والنحلة بخلايا الشمع التى تبنيها تزدرى ببعض المهندسين المعماريين . ولكن اردأ المعماريين يمتاز منذ البداية بأنه قبل ان يبنى الخلية من الشمع يكون قد بناها فى راسه . ففى نهاية العمل تكون النتيجة انه يحصل على ما سبق ان كان فى بداية هذه العملية تصورا لدى الانسان اى فى خياله .

ان الحديث يجرى هنا عن خاصية جوهرية للنشاط الانسانى وهى العمل الهادف ، اى النشاط الذى يلائم بين ما يفعل وما يريد الوصول اليه . فالانسان يحقق هدفا فى كل عمل من اعماله اى يطمح الى تحقيق نتيجة تسبق فى وعيه وخياله كصورة فكرية ». ومن حيث المبدا لا يمكن تصور اى تصرف انسانى دون وعى

ومعرفة (أو على الأقل محاولة لاستيعابه) بالنتيجة الاخيرة (اى الهدف) وكذلك الوعى بالوسائل والاساليب التى يمكن بفضلها بلوغ الهدف . ولذا فانه من الخطأ أن نتصور النشاط الفكرى (النظرى) شيئا يوجد بجانب النشاط العملى ومستقلا عنه . فهذا وذلك ليسا خطين متوازيين ، بل جانبان لاينفصمان للنشاط الانسانى الحيوى . فلا توجد نظرية بمعزل عن التطبيق ، كما ان الانتاج والصراع الطبقى ... الخ ، أمور لا يمكن التفكير فيها بدون درجة من درجات تطور الوعى وبدون معارف معينة لدى من يشتركون فيه .

ولما كان الوعى وصفا وميزة وانعكاسا للطبيعة والمجتمع والوجود الاجتماعى فهو فى نفس الوقت جانب ضرورى من جوانب النشاط العملى لتغيير الطبيعة والمجتمع وهو يتكون فى اثناء عملية التغيير هذه . واذا كانت كل جوانب الوجود الاجتماعى تتكون فى النشاط العملى ، فان هذا يصدق أيضا بصورة كاملة على وعى الناس بالعالم المحيط بهم ، وعلى « انتاج » الافكار ، والتصورات العلمية والصور والشخصيات الفنية .

ولكى نفسر المعرفة الانسانية تفسيرا علميا صارما لا يكفى ان نقتصر على تأثير الطبيعة والمجتمع فى وعى الفرد . فلا بد من دراسة نشاط الناس الفعال فى العالم ، النشاط والاعمال التى يتخذونها وفقا للاهداف المطروحة بدرجات متفاوتة من الوعى . وهكذا ينشأ الارتباط المزدوج . فالوعى الانسانى يتكون فى النشاط العملى فى مسار تطور النشاط الاجتماعى من جهة ، ومن جهة أخرى فالوعى نفسه شرط ضرورى لوجود المجتمع ، فمحتوى الوجود الاجتماعى انما يتحقق فى نشاط الناس الافراد الذين يكونون المجتمع .

لنضرب اولا مثلا حول شكل من اشكال الوعى الانسانى ، الا وهو العلوم الطبيعية ، اى مجموع معارف الانسان عن الطبيعة .

اذ تنشأ ضرورة دراسة قوانين الطبيعة مباشرة من مهام النشاط العملى . ولكن هذا ليس كل المسألة . فالتطبيق لا يخلق الحاجة الى المعرفة وضروراتها فحسب ، بل ويحدد امكانياتها ونطاق وطابع المعرفة ووسيلة الحصول عليها . ففى الممارسة العملية والتطبيق بالذات يكشف الانسان تلك المميزات والخصائص ونواميس الاشياء التى ليست أساسا لتغيير أدوات الطبيعة والانتفاع بها فحسب بل لا يمكن ادراكها على حدة بمعزل عن استخدامها التطبيقى . فالحجر الملقى على ضفة النهر لم « يتحدث » فى يوم من الايام بل ولم يهمس فى أذن الانسان البدائى بأنه يمكن استخدامه لسن عود أو اعداد رمح .

ولقد برهن الباحث السوفييتى غ . ف . خروستوف بأن القردة الشبيهة بالانسان لا تستطيع استخدام الادوات الجاهزة فهى تنظر اليها ، كمواد وموضوعات غريبة ليست لها اية علاقة بأهداف النشاط والممارسة . بينما تمكن الشمبانزى فى تجارب خاصة من عمل الكثير . فقد حصل على الموز الموجود فى قصبة ضيقة بواسطة عصاة أعدتها القردة بنفسها من اسطوانة خشبية . ولم يستطع القرد سلطان أن « يشكل » لوحا من خشب البلوط باستخدام أعضائه الطبيعية ، مثل الايدى والاسنان . وقد أعطى مع اللوح ـ قطعة حجرية حادة فى أسفلها ، وهى اداة استخدمها الانسان البدائى . (اكتشف أدوات شبيهة بهذه فى مجاثم اسلافنا ، ثم اعدها مختبر العالم المعروف س . ا . سيمينوف) ولم يستخدم سلطان هذا الحجر مرة واحدة كأداة عمل لشق لوحة الخشب البلوطية . فهذه الاداة الحجرية ظلت بالنسبة له شيئا طبيعيا كأى حجر آخر ، فالاداة لا وجود لها ابدا بالنسبة للشمبانزى . فاستخدام الحجر كأداة ليس من الخصائص الطبيعية لنوع من الحجر ، بل وظيفة اكتسبها نتيجة لاستخدامه فى مجرى الحياة الاجتماعية .

فلا الشمبانزى ولا حتى أسلاف الانسان الأكثر تطورا ، من القردة الشبيهة بالانسان (وقد برهن على وجوده فى كثير من اعمال الانثروبولوجيين المعاصرين) لجأت الى استخدام ادوات اخرى غير اعضائه الطبيعية او أرض وسقف مغارته .

فالحجر لم يستطع ان يقول شيئا عن خصائصه . وقد باح بها فقط عند ما انتزعه الانسان فى أثناء عمله من وسطه وعلاقاته الطبيعية الاولية (وبصورة أبسط عندما التقطه الناس من على ضفة النهر) ووضع فى مجرى علاقات جديدة مع أشياء اخرى لم يكن قادرا عليها بنفسه (وبصورة أبسط لقد استخدم الحجر فى سن العيدان) .

وباستخدام الحجر لسن العيدان ، اى فى العمل فقط حصل الانسان على معرفة بالخصائص الموضوعية للحجر (اى مستقلة عن الانسان وارادته وعن عمله وجوده الاخرى) ، والتى ما كان ليحدث بها الحجر لولا استخدامه للحجر . واذا كان الانسان يستطيع اليوم بعد نظرة عابرة ان يتحدث بثقة عن خصائص شيء ما ووظيفته الاجتماعية فذلك لأن كل واحد منا يملك الخبرة التاريخية الطويلة التى سيطر الانسان بها على هذا الشيء .

ان المثال السابق يتعلق بعملية وعى بدائية واولية . وعند دراسة قوانين الطبيعة الاكثر عمقا وتعقيدا فالامر ليس واضحا وبسيطا . كما هو فى هذا المثال . ولكن من حيث المبدا فالاكتشاف العلمى يتم بهذه الصورة بالضبط ، وبهذه الصورة ايضا تتراكم المعرفة العلمية . ان السيطرة على الطبيعة التى بدات مسيرتها مع العمل توسع آفاق الإنسان مع كل خطوة يخطوها الانسان الى الامام . فقد توالى اكتشاف الخصائص الجديدة للاشياء . وفى الممارسة اليومية لملايين الناس تجمع الملاحظات العملية والمعلومات عن الاشياء وعن خصائصها وعن طرق استخدامها ، ثم تغدو هذه كلها موضوعا للتحليل النظرى والتعميم وتصبح بذلك

اساسا لكل معرفة . فنحن نعرف الحادثة المشهورة فى حياة جاليليو الذى دهش عند ما علم من العامل انه لا يمكن باستخدام المضخة رفع الماء الى اكثر من ارتفاع معين . وقد كان هذا دافعا لاكتشاف يتعلق بالفراغ ووزن الهواء . وهكذا نجد ان الحرفيين العاديين قرروا حقائق لم يكن يعرفها العلم .

ان المعرفة « تندمج بصور متعددة فى نشاط الناس ، مكونة بذلك اساس التكنولوجيا المستخدمة فى الانتاج ، وخبرات العمل ومهاراته ، وتصور الناس لما هو ممكن وما هو مستحيل ، وللمهام وطرق تحقيقها .

وتنشأ اشكال الابداع الفنى فى اثناء النشاط العملى ولتحقيق حاجاته . ان نشاط الانسان الذى يسير بوعى نحو هدفه يفترض القدرة على تصور وتخيل الهدف مسبقا ، ولا يمكن ذلك بدون خيال ابداعى متطور بدرجة او باخرى . وينمو الخيال الى اقصى درجاته فى الابداع الفنى وخلق الانتاج الفنى وكذلك فى تمتع الناس باعمال الفنان .

وقد قام الفن منذ نشأته بوظيفة مشابهة . وعلى كل حال فان النظرية التى تربط نشأة الفن بالنشاط العملى لاسلاف الانسان الاوائل تبدو اكثر اقناعا . فعندما رسم الانسان البدائى الماموث او الدب ، لم يكن ذلك «بروفة » لعملية الصيد ، بل تخطيطا لها . ان رسم الافكار التى تدور براس الصياد هى بمثابة برنامج للعمليات القادمة . وهذا هو تصور وتخيل هدف النشاط ، واختيار وسائل بلوغ الهدف . وبهذا ينمو ويتطور خيال المبدع كخاصية ضرورية ومميزة لنشاط الانسان .

ولا يمكن بالطبع ان نفسر مهمة الفن على انه تطوير وابداع المخيلة . انه اكثر تنوعا من ذلك كثيرا . ولكن نكتفى بما نحن بصدده الآن بالتاكيد على ان الفن تابع للنشاط العملى وهو جزء

لا يتجزأ منه . وهناك صور اخرى للوعى الاجتماعى تجد لها مكانا فى النشاط العملى للانسان ، وترتبط بصورة خاصة بالجوانب المختلفة لهذا النشاط ».

وبشكل عام يمكن صياغة المبادىء الاساسية فى المفهوم المادى للتاريخ كالتالى : انه بالانطلاق من الانتاج المادى فقط يمكن تفسير العلاقات الانتاجية وغيرها من العلاقات الاجتماعية المرتبطة بهذا الانتاج المادى .

وهذا هو المبدأ نفسه فى تفسير المجتمع نفسه فى درجات تطوره المختلفة ، كما يمكن على نفس الاساس توضيح تأثير العلاقات الاجتماعية فى الحياة السياسية ونشاط الدولة ، وفى مختلف النظريات وصور الوعى ومتابعة عملية نشوئها .

ان المفهوم المادى للتاريخ يتيح لنا ان نتصور تلك الظروف والعلاقات الاجتماعية التى تكون جوهر الانسان والتى ينشأ فى ظلها هذا الجوهر ويتطور أيضا ، كما يمكن فهم جوهر الانسان فقط ببحث مجموع علاقات وقوى الانتاج الخاصة بدرجة من درجات التطور الاجتماعى .

ولا يوجد طريق آخر لادراك جوهر الانسان . ولكن كيف يمكن ان نحكم على قدرات الانسان الاساسية اى مهاراته وخبراته ، والمعرفة وطرق الحصول عليها وميوله نحو هذا او ذاك من أوجه النشاط ؟ ان هذا ممكن فقط بتحليل الموضوعات والاشياء والهيئات والمؤسسات الاجتماعية التى تجسد هذه القوى المكونة لجوهر الانسان . ان العالم الذى اعاد الانسان تشكيله وكذلك الطبيعة وعالم علاقاته الاجتماعية هو الصورة المادية الواضحة المرئية والملموسة لخصب وغنى قواه الاساسية .

لقد جسد الانسان فى أدوات العمل تطور اليد الانسانية ، وقدرتها على انجاز مختلف الاعمال والحركات التى لا يقدر عليها

اى حيوان . ان تركيب اليد لا يحدد بصورة صارمة وموحدة ـ كما هو لدى الحيوانات ـ العمليات التى تستطيع القيام بها . فالطبيعة والتركيب التشريحى ليد الانسان لا يقصر عمل اليد على وظيفة بعينها (مثلما يحدث بالنسبة لجناح او مخلب او زعانف الحيوان) .

وتتطور اليد وتتحسن بالقدر الذى يدخل فى نطاق نشاطها المزيد من الادوات فى اثناء العمل لانها بذلك تكسب القدرة على اعمال متنوعة . وقد كتب انجلز « وهكذا نجد أن اليد ليست عضو العمل ، وحسب ، انما هى أيضا نتاج له . فبفضل العمل وحده وبفضل التكيف المستمر لعمليات جديدة ، وبفضل التطور الخاص الذى اكتسبته العضلات واطراف العضلات على هذا النحو ، وكذلك العظام ذاتها على فترات اطول ، وبفضل توارث هذا التطور ، واخيرا بفضل تطبيق هذه الصفة الوراثية باستمرار على عمليات جديدة تزداد تعقيدا على الدوام ، بفضل هذا كله بلغت يد الانسان هذه الدرجة الرفيعة من الاتقان الذى تستطيع أن تفجر به ، روائع لوحات روفائيل وتماثيل توروفالدسن وموسيقى باغانينى كما لو كانت تعمل بقوة السحر » (١) .

وهذا هو الحال بالنسبة الى مواهب الانسان الاخرى . فليست اية واحدة منها هبة من الطبيعة موجودة فطريا فى تركيب اعضاء جسمه . فكل مواهبه مكتسبة فى اثناء النشاط والعمل . فمن المعروف ان الناس يتحدثون لغات مختلفة وليست هناك لغة واحدة منها فطرية او تكتسبها اعضاء النطق بالوراثة . بل ان الاطفال قبل السن التى يستطيعون فيها الكلام ، وبشهادة البحوث الخاصة ، قادرون على النطق بكل الاصوات الخاصة باللغات المختلفة التى توجد على الارض . لقد امكن تسجيل

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، المجلد ٢٠ ص ٤٨٨ .

أصوات متفاوتة فى لعثمة الطفل من the التى يصعب نطقها على غير الانجليز الى الطقطقة الخاصة ببعض لغات الشعوب الأفريقية .

ويعنى هذا انه بالاندماج فى حياة اى شعب من الشعوب يمكن لأى انسان مولود فى ظروف تاريخية وثقافية وجغرافية مغايرة ان يتقن لغة هذا الشعب . وخلافا للسان فان اعضاء التعبير الصوتى لدى الحيوان متخصصة ومكيفة لاصدار أصوات معينة فقط .

ان عدم وجود حتمية بيولوجية امر يتيح للانسان تنمية مواهبه الى أقصى درجة فى العمل وفى النشاط الاجتماعى ، وهو « يجسد » مواهبه فى نتاج عمله وبذلك يجعلها ميسرة لغيره من الناس وللانسانية بأسرها . وبفضل انتاج الانسان فى سير نشاطه لأدوات لم توجدها الطبيعة يخلق الانسان العالم المحيط به ، ويعيد تشكيل الطبيعة ويصنع التاريخ .

وهكذا فان تطور قوى الانتاج الاجتماعية ، التى تضمن للانسان السيطرة على الطبيعة هو فى نفس الوقت تطوير لقوى الابداع لديه : مواهبه ، ومهاراته ، ومعارفه . وهنا تنشأ كل ظروف وشروط حياة الانسان بل والانسان نفسه . ان الانسان وهو يؤثر فى الطبيعة ويغيرها يغير فى نفس الوقت ايضا طبيعته الخاصة .

وهكذا وصلنا الى الاستنتاج القائل بأن الانسان يبنى بالعمل العالم المحيط وعالمه الاجتماعى ومعارفه ، وكل ثروات الثقافة بل ويخلق نفسه أيضا .

ان هذه العملية التى هى عملية نمو وتطوير المجتمع الذى يخضع لقوانين موضوعية هى فى نفس الوقت ، قوانين نشاط الناس . ويعنى هذا ان التطور الفعلى للمجتمع وقوانينه التى يصوغها المفهوم المادى للتاريخ مطابق لنشوء وتطور الانسان

ويشكل ايضا محتوى نشاطه . ولذا فان حياة الانسان الاجتماعية هى نتاج نشاط الانسانية الاجتماعى وشرط وقاعدة هذا النشاط فى نفس الوقت .

الحــرية

بعدتوصلنا الى ان تطور المجتمع ونشاط الانســان خاضعان لقوانين موضوعية نكون قد اقتربنــا من جانب آخر من مشــكلة اخرى تشــكل موضــوع هــذا الكتــاب . هل يمكننــا الآن ان نتحــدث عن الحــرية فى نشــاط الانســان ؟ هــل كان النــاس قادرين على اختيار الامكانيات المختلفة واتخــاذ القــرار وتنفيذه بصورة مستقلة ؟

هل تعيننا قضايا المادية التاريخية التى صاغها ماركس وانجلز فى حل هذه المسألة الصعبة التى شغلت مفكرى مختلف العصــور والبلدان ؟

لقد كتب جورج بوخنر الديموقراطى الالمانى فى رســالة الى خطيبته فى مطلع القرن التاسع عشر يقــول : « انى ارى ... فى العلاقات الانسانية قوة لا تقهر ، يملكها الجميع بصفة عامة ، ولا احد على انفراد . ان الفرد زبد على سطح الموجة ، والعظمة ليست الا صدفة ، وسلطة العباقرة ليست الا كوميديا لمسرح العرائس ، وطموح مضحك لمقاومة قانون حديدى ، يمكن فى احسن الاحــوال معرفته فقط ، ولكن لا يمكن اخضاعه لارادتنا » .

وبعد حوالى ١٥٠ عاما تقريبــا وفى المؤتمر الثامن للفلســفة المنعقد بالمكسيك ، وليس فى رسالة خاصة ، عرض الفيلســوف الايطالى شاكا نفس الفكرة من حيث الأساس اذ قال : الانســان غير مستقل عن جســده وقطعة الارض ، وعن الســكن والأسرة

وعن التعليم والخرافات والتقاليد والمجتمع وآلاف قيود السجن الذي نسميه العالم ، والذى لا يتحرر منه الا بعد الموت • ولكن النظرة الماركسية للانسان تتيح لنا حل هذه المسألة • ان الانسان « حر ليس نتيجة لقوة سلبية تمكنه من تجنب هذا أو ذاك ، بل نتيجة لقوة ايجابية تجعله قادرا على ابراز ذاتيته الحقيقية » (١) • أن تكون حرا يعنى أن تعبر بصورة مستقلة فى النشاط العملى عن جوهر الانسان الحقيقى • وهكذا فان معيار الحرية وفقا لتعبير أنطونيو جرامشي يدخل فى مفهوم الانسان •

ان جوهر المسألة يكمن فى أنه عادة ما يولع كثير من المفكرين بايجاد تعارض بين الحرية والضرورة وهم فى الواقع يغطون بذلك على مشكلة أخرى • ان هذا التعارض قائم على تصور حرية مطلقة لا ترتبط بأى قانون تاريخى وعلى ضرورة مطلقة مثلها ، تحدد من البداية الى النهاية كل شيء ، بما فى ذلك أبسط تصرفات الناس • ان حرية كهذه تتعارض فعلا مع الضرورة المفهومة على هذا النحو •

ولا وجود فى الواقع لحرية مطلقة كهذه تعادل الاستبداد المطلق • ان الانسان لا يمكن أن يكون متحررا من ماضيه ومن باب أولى من ماضى الانسانية بأسره • ففى ذلك الماضى صنع الانسان أدوات العمل التى يستخدمها كل جيل جديد من الناس وتلك العلاقات الاجتماعية التى يجدها هذا الجيل جاهزة فى بداية حياته • ومع ذلك فان نشاط الانسان يحقق « هدفه الواعى ، الذى يحدد كالقانون وسيلة وطابع أفعاله والذى عليه ان يخضع له ارادته » (٢) •

ان التناقض بين الحرية والضرورة يتحول الى قضية أخرى

---

(١) ك • ماركس و ف • انجلز ، المؤلفات ، المجلد ٢ ، ص ١٤٥ •
(٢) ك • ماركس و ف • انجلز . المؤلفات ، المجلد ٢٣ ص ١٨٩ •

هى العلاقة بين قوانين التطور التاريخى وحتميته وبين عمل الناس انواعى الهادف أى النشاط الحر للناس ٠

ان الاجابة عن هذا السؤال هى فى أن الهدف « كقانون » يحدد نشاط الانسان امر مشروط من قبل بالعلاقات الاجتماعية الموجودة والتى يبدأ الانسان نشاطه فى نطاقها ٠ ولكى يتصرف الناس بوعى عليهم ان يكتسبوا ويتقنوا معارف ومهارات وخبرات تمكنهم من ممارسة وجوه النشاط المختلفة ، بمعنى آخر أنهم يكتسبون الخبرة التى سبق تراكمها فى المجتمع ٠

وعند ذلك فقط يتمكن الانسان من وضع أهدافه بصورة مستقلة ٠ ان هذه الأهداف هى بمثابة حلقات الاتصال بين الماضى والحاضر ، والحاضر بالمستقبل ٠ فهى تتضمن من جانب نتائج كل الأفعال السابقة ، ومن جانب آخر توجد بصفتها صورة فكرية لنتيجة نشاط المستقبل ٠ واذا كانت النتيجة قد تم تحقيقها قبل ذلك ، فان النشاط يكون مقصورا على تحديد الانتاج بما يتناسب ويتلاءم مع أهداف الانسان (مثل الماكينات والآلات والمواد الغذائية والملابس وقواعد السلوك وقواعد الأخلاق المتوارثة وقد تأتى عن أفعال الانسان نتيجة لم تكن موجودة من قبل ، ولم يستطع الناس حتى تلك اللحظة التاريخية انتاجها ، وفى هذه الحال يصبح النشاط الانسانى خلاقا ٠

وبالرغم من أن الانسان وهو يخلق الجديد يستحدث شيئا لم يكن قائما قبل ذلك الا أن هذا الجديد يتطلب مع ذلك مقدمات معينة ٠ فعندما سئل نيوتن عن سبب اكتشافاته العلمية الرائعة أجاب قائلا : « لقد وقفت على أكتاف العمالقة » ٠ وهكذا فان صنع الجديد الذى هو نتيجة لجهود مبدعة فى أى مجال من مجالات النشاط ، مرتبطة بصورة وثيقة بكل انجازات الانسانية فأهداف الانسان هى فى وقت واحد مشروطة بواقع الأشياء

الراهن وتجاوز له ، والا لما كان أمامنا الانسان الحر ، وأن الكائن لا يكون حرا عندما يتصرف وفقا لنزواته ، ولا يبالى بالظروف ، كما قال ليسينغ •

ان القضية هنا هى أن الظروف تتيح دائما للانسان قدرا كبير من الامكانيات المتنوعة ووسائل تحقيقها • ان اختيار الاهداف ووسائل تحقيقها هو الحرية • ومن المعروف أنه كلما كان تقدير الامكانيات الواقعية للتطور الاجتماعى أكثر دقة والوسائل التى يقدمها المجتمع للانسان ، يكون الانسان أكثر حرية فى اختياره ، وينفتح أمام أفق واسع لطرح أهدافه للحصول على الوسائل الضرورية ، وتتضاعف امكانية خلق الجديد ويزداد كنز الثروة الاجتماعية •

ان حرية اختيار الهدف صفة مميزة لنشاط الانسان فى كل مرحلة من مراحل تطوره •

وعلى العكس من ذلك ، فالاختيار الحر المميز لنشاط الانسان مشروط بالتطور الموضوعى للمجتمع ، لأن كل جيل يبدأ نشاطه فى ظروف إجتماعية قائمة ، كما أن تحقيق احدى الامكانيات الكامنة فى التقدم الاجتماعى ، واختيار واحدة منها ، ليس متوقفا على ظروف التطور المستقلة عن الانسان ، بل تتوقف فى الكثير من جوانبها على قدرة الانسان على حل المشاكل التى تعترضه •

ان خلق عالم الانسان الذى يتم وفقا لقوانين تطور المجتمع انما يكون بحل المشاكل المطروحة أمام الانسان ، وبالاختيار الحر للطرق والوسائل المؤدية لهذا الحل • ان النشاط الابداعى الحر للانسان هو الصورة التى تتحقق بها عملية التطور التاريخى الموضوعية • والتاريخ نفسه يمكن فهمه كتحقيق وتزايد مطرد لحريه الانسان •

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الرأى فى جوهر الانسان وما يترتب عليه من فهم للحرية وبين الحقائق الواقعية ـ خضوع الانسان على امتداد جزء كبير من تاريخه لعلاقات اجتماعية مستقلة عنه ومناقضة لمصالحه ، وانعدام الحرية فى المجتمع الطبقى المتناحر ، وبصورة خاصة فى البلدان الرأسمالية المعاصرة ؟ من هم اذن الناس الذى يقصدهم المفهوم الماركسى لجوهر الانسان ؟

ان مهمة كل بحث علمى ليست مقصورة على توضيح تلك الحقائق التى تتفق مع موقفه النظرى ، ولكن أيضا تلك التى تناقضها بل والتى تشوهها حتى وان كانت هذه « الحقائق » لا توجد الا فى خيال الناس • ونتيجة لتفسير مثل هذا يمكن فقط اعتبار النظرية المعينة نظرية علمية منسجمه ومثمرة •

ان مثل هذا الفهم للبحث العلمى قد نال الاعتراف منذ زمن بعيد ويمكن توضيحه بالعديد من الأمثلة • واليك واحدا منها :

ان الملاحظة المباشرة لحركة الكواكب فى القبة السماوية قادت الناس الى القول بأن الشمس تدور حول الأرض والامر على العكس فى واقع الأمر • فان نظرية كوبرنيكوس التى تقول بمركزية الشمس تقيم البرهان على دوران الأرض حول الشمس ولكن لكى نضع البرهنة الدقيقة على صحة هذه النظرية لابد من تفسير الادراك الحسى الخاطىء لدوران الأرض والشمس عند الناس •

ان تحليل المشكلة التى نحن بصددها لابد أن يعيننا على تفسير التشويه والانحراف الذى يلحق بجوهر الانسان الواقعى وبالمحتوى الأصلى لنشاطه ، ويبين النتائج التى يؤدى اليها هذا الانحراف فى المجال النظرى وما هى الوسائل الكفيلة بتغيير الاوضاع الراهنة وبالتالى التحرر من الاخطاء والضلال النظرى •

اذا نظرنا الى التاريخ الواقعى للمجتمع فليس من الصعب أن نلاحظ أنه ليس كل الناس أحرارا ، على الرغم من أن الحرية تتعلق بجوهر الانسان ؟ فبأى حق يمكن أن نقول اذن أن التاريخ هو تحقيق الحرية أى أن الحرية تتم من قبل المجتمع الانسانى ككل ؟ ان حرية الانسانية ازاء الطبيعة فى تزايد مستمر ، فهى تخضعها لسيطرتها وتبلغ بذلك أهدافها . وأن التقدم البشرى فى ظروف تاريخية معينة يتخذ صورة شديدة التناقض : ان زيادة حرية المجتمع ككل تعود على معظم افراده بفقدانها . فما هى هذه الشروط ؟ .

صمت العالم « الغبى » أو « تمرد الانسان »

فلننظر الى المجتمع الرأسمالى المعاصر . ان المدافعين عن الرأسمالية يصورونها على أنها مأوى للحرية . وخلافا لذلك فكثير من المفكرين حتى فى العالم البرجوازى يعترفون فى اسى بأن الديمقراطية البرجوازية التى كتبت على رايتها بجانب المساواة والاخاء كلمة الحرية قد غدت منذ وقت طويل فى ذمة التاريخ .

ويصف الصحفى الانجليزى ت . باركر فى كتابه « خمس نساء فى السجن » واقعة تبدو متناقضة من الوهلة الأولى فيقول : كثير من النساء بعد قضاء المدة المحكوم بها عليهن للسرقة يرغبن فى العودة الى السجن . لماذا ؟ هروبا من الوحدة . وقد قالت احداهن : « عندما أكون حرة لا يهتم بى أحد ، لا يقر لى قرار ، انى فى السجن انسانة بين الناس » . هكذا نرى انسانا يبحث عن الخلاص فى العالم « الحر » فى السجن ! .

ان الكثيرين من النظريين والأيديولوجين والفنانين

البرجوازيين لا يرون مخرجا من الوضع الراهن . ويرى آخرون المخرج فى احتقار كل القيم والقواعد والنظم والقوانين الاجتماعية والنهج البرجوازى المعاصر دليل على ذلك مثل فيلم المخرج الألمانى الغربى ف . شليندورف « العيش بأى ثمن » فقد قتلت بطلة الفيلم صديقها صدفة وقد كرس كل الفيلم ليعرض كيف تحاول مع أصدقائها اخفاء الجثة . وهذا العمل غير السار يخلق بالرغم من ذلك حالة نشاط وحيوية غريبة . لماذا ؟ ان المخرج يفسر الهيجان الذى سيطر على أبطال الفيلم على الوجه التالى : « انهم لأول مرة يواجهون « ثمرة » عملهم . لقد تبلورت حياتهم واكتسبت معناها فى هذه المغامرة » ! .

ومن البديهى أن لدى أبطال هذا الفيلم حرية موهومة . ولكن الموقف الذى يحاولون التخلص منه موصوف بصورة صحيحة على وجه العموم . وفى الواقع أن الانسان فى المجتمع الرأسمالى ليس محروما من السيطرة على نتائج عمله فقط بل انه يقع تحت سيطرتها . ان معنى الحياة يكاد يخضع كلية لمتطلبات و « حاجات » عالم المنتجات الذى صنعه الانسان أى مطالب الانتاج وجهاز الدولة البيروقراطى .. الخ . اننا هنا نصطدم من جديد بالتناقض القديم بين الفرد و « الظروف » . ولذا فان الحرية كثيرا ما تفهم على أنها تحرر من هذا العالم أى على أنها قوة سلبية تتجنب هذا أو ذاك من الشرور .

ويتصور الكثيرون أن هذا هو الحل الوحيد الممكن ، أو أعقل الحلول لتناقض لا يرون له حلا آخر . كما أن الاعتراف بحتمية التطور الاجتماعى تبدو متناقضة مع الحرية ونصبح وكأننا أمام حلين فقط هما : اما أن الانسان متحرر من الضرورة أو هو عبد لقوانين مستقلة عنه . ولذا فان الحرية هى أن يتصرف الانسان بصورة اعتباطية ، أى وفقا لرغباته وبازدراء تام للعالم المحيط به .

ان التعبير المتطرف عن هذا الرأى ، يؤكد وجود قانون واحد فقط فى العالم هو « حرية ارادة » الانسان ، ويبدو ذلك وكأنه القانون الوحيد القائم • وليس من الصعب اكتشاف الرجعية المفرطة لهذه النظرية • فان فرض الارادة على العالم يغدو ضروريا عندا يتطور العـالم رغما عن مصالح الطبقات القديمـة وعندما يطرح السير الموضوعى للتاريخ قضية يكون أو لا يكون • وليس مصادفة أن يزداد تعلق البرجوازية بمثل هذه النظريات فى مرحلة الأزمة الشاملة للرأسـمالية • وليس مصادفة أيضـا أن نظرية كهذه كانت أساس الأيديولوجية الفاشية • ان ارادة « القائد » « الفوهـرر » هى قانون التـاريخ الأوحـد ـ أليس هـذا هو « التبرير » الامثل لاكثر السياسات رجعية ولكل المغامرات الخطرة ضـد الانسانية ؟

ان الصورة الملطفة لموقف « الحرية » الاعتباطية الفردية تؤكد بأن الانسان يتحرر من الظروف باطنيا دون أن يغير شيئا فى الواقع • واتخاذ هذا الموقف يسمح باسقاط المسئولية عن تصرفات الانسان لا سيما فى الجرائم • وليس صدفة أن مشـكلة الحرية والضرورة والذنب والمسئولية تميز الفلسفة الوجودية المنتشرة فى الغرب ، وهى الفلسفة التى ظهرت بصـورة صارخة بعـد الغزو الفاشى • ومن المهم فى هذا الصدد موقف جان بول سارتر الكاتب الفرنسى المعاصر والفيلسوف الوجودى البارز • ولننظر فى مسرحيته الفلسفية « الذباب » •••

تعود أحداث الرواية الى الماضى البعيد ولكن المشـاكل التى تتطرق اليها هى مشاكل معاصرة • تجرى الأحداث فى مدينـة يونانية قديمة هى دولة ارجوس ، لقد مضى خمسـة عشر قرنا منذ ذلك الوقت الذى اهتزت فيه الحياة فى المدينة على أثر جريمة تراجيدية • والحاكم الحالى قيصر ارجوس ايجسف كان من رعايا

اجا ممنون العظيم . وبعد ان قتل سيده اغتصب العرش ومعه كلمنسترا زوجة القيصر المقتول . وقد ادين ابن اجا ممنون اورست ولم ترحم الا اخته الكترا . ولكن أورست نجا بنفسه ، ثم عاد بعد سنوات الى أرجوس فوجد الحياة غير ممتعة على الاطلاق ، فالناس في أرجوس يطيعون الحاكم الجديد طاعة عمياء . وتقوم هده الطاعة قبل كل شيء على الخوف .

ان الموقف فى أرجوس يذكرنا بفرنسا فى عهد الاحتلال الفاشى وعلى كل حال فان أوائل المشاهدين للمسرحية فى ١٩٤٣ فهموها على هذا النحو .

ولكن بالرغم من أهمية التشبيه ، فانه لا يشكل محور المدلول السياسى للمسرحية . ان أورست الذى وجد نفسه فى أرجوس فى موقف هاملت ، يتساءل مثل الامير الدانمركى : هل يمكن الثأر من ايجسيف ، وهل هذا ضرورى ؟ وقد ربط أورست هذا التصرف بالاجابة عن السؤال التالى : اليس الثأر انكارا لسنة الله ؟ الم يقتل أجا ممنون بارادة الله ؟ اذن عليه أن يفضل الخضوع على الثأر ! .

ان الله فى هذا السياق رمز للقانون الوضعى للعالم ، كما ان « الثأر » و « الطاعة » أو الخضوع ، رمزان لامكان الحرية أو عدمها فى هذا العالم . ان الثأر وهو ممارسة الحرية ورفض الحتمية الطبيعية (أو الالهية وهى نفس الشىء) .

وقد تعذب أورست وهو يفكر فى هذا الموقف . وفى النهاية وصل الىالاستنتاج القائل بأن الانسان حر وهو لا يمكن الا أن يكون حرا . اذن فالثأر ضرورى . وقد ثار ، لقد قتل ايجسيف وكلمنسترا ، دون تأنيب ضمير أو شك ، فالقتل بالنسبة لأورست ليس الا تعبيرا عن مظهر للحرية .

وهنا يظهر أن مهمة كهذه لا يقدر عليها كل انسان ، ان الحريه تثقل الكاهل الذى يحملها ، انها نصيب الاقوياء . أما الضعفاء وهم الأغلبية للاسف فنصيبهم : تأنيب الضمير .

لقد خاطب جوبيتر أورست : اندم . ولكن الندم يعنى الموافقة على شريعة الالهة ورفض الحرية . ولا يستطيع أورست المتكبر ان يسلك سبيل الضعفاء الذى قضت به ارادة آلهة الارض والسماء . وحتى الوحدة لا تفزعه وهى نصيب الذين يفضلون حريتهم على شريعة الآلهة . « ما فى خارج الطبيعة ، وضدها ، ودون تبرير ودون اى سند سوى ذاته . انى لن أعود الى ظل شريعتك : محكوم على الا يكون لى قانون سوى قانونى . لن أعود الى عالمك الطبيعى ، وآلاف الطرقات تؤدى اليك وأنا لا أستطيع الا ان أسلك سبيلى الخاص .

لأنى انسان ياجوبيتر ، وعلى كل انسان أن يبحث عن طريقه » .

ان سارتر هنا يقف ضد الخضوع لقوانين العالم القاسية . ولكن النضال ضد العالم القاسى لا يرتبط بالتاريخ الواقعى ، بحاجات الناس المحددة . ان « صمت العالم الغبى » الذى يتبع سبيله و « تمرد الانسان » مشروطان فقط بثورات ونزوات الانسان النفسية ـ وهذه هى العلاقة بين حرية الفعل الانسانى والقانون الموضوعى لتطور العالم . ان تمرد أورست لا يغير شيئا فى الواقع . ولذا يبقى كل شىء على ما كان عليه فى مدينة أرجوس الشقية .

وهكذا فانه وفقا لنظرية سارتر ، فان الوضع الراهن فى تلك المرحلة والنظام الاجتماعى لا يمكن تغييرهما رغم رفضهما وادانتهما . ان استقلال الانسان عن « الظروف » يمكن الوصول اليه ، فى هذه الحالة ، بتجاهلها وانكارها فى الوعى فقط ، مع الخضوع طائعا أو مكرها فى الواقع .

ان المحتوى الحقيقى لنظرية كهذه هو تبرير المجتمع القائم وانظمته غير الانسانية ، بصرف النظر عن النوايا الطيبة وطموح المفكر نفسه • وأما مؤيدو هذه النظرية المتطرفون فانهم يهدفون بوعى الى المحافظة على النظام القائم •

ولا يثير التعجب أن سارتر غير موقفه هذا • وفوق ذلك فانه ليس من الصعب رفض هذا الموقف بعد الانطلاق من مقدماته • ففى الواقع ، ان النخبة المختارة من الشخصيات هى القادرة على التمرد الذى لا يغير شيئا من « صمت العالم المطبق » أما الاغلبية فان نصيبها هو أن تتكيف بقدر استطاعتها مع « الصمت المطبق » وان تسلم به كشىء دائم وثابت ، حتى وان كان هذا « العالم الصامت صمت القبر » من صنع « الأقوياء » الذين يتجاوزون ويدوسون كل القوانين وحتى اذا كانت هذه الارادة دافعا لارتكاب الجريمة •

ان هذا الاستنتاج ليس امكانية منطقية محضة • ان التاريخ اثبت امكانية تلك العملية بصورة رهيبة • الا تشهد على هذا أعمال الفاشيست الاجرامية ؟ ان ارادة « الفوهرر » املت القوانين على الشعب الالمانى ، باستثارتها للغرائز الدنيا للناس وتشجيعها لها ، ثم تحويلها الى أهداف قومية • وأصبح كل انسان دمية فى يد « الفوهرر » الذى يأمر ويعلن باسم الأمة بل والتاريخ • وما دام الانسان خادما أعمى لارادة غيره فهو غير مسئول عن اى شىء امام احد • وعند ذلك فالقتلة والمجرمون غير مذنبين حتى ولو كان ضحاياهم بالملايين • وهكذا برزت فى الآونة الأخيرة الفكرة الفاسدة والكاذبة التى تدعى براءة مجرمى الحرب الفاشست ما داموا اقل مرتبة من هتلر واعوانه المقربين • ولم يؤيد هذه الفكرة اى انسان شريف على الأرض • وقد فكر سارتر ايضا فيها •

ونتذكر بهذه المناسبة جرائم بطل آخر لسارتر فى مسرحية « سجناء الطونا » التى كتبها بعد عشرين عاما من مسرحية « الذباب » .

أمامنا المانيا ما بعد الحرب . وقد مضت ثلاثون عاما على انتهاء الحرب . ولكن الذكريات لم تختف ولم تنس فظائع الفاشية . وقد كتبت الرواية فى وقت لوحظ فيه نمو الفاشية الجديدة لا فى المانيا الغربية بل وفى فرنسا أيضا .

وليس عجيبا أن تظل مسألة المجرمين الفاشيست ومسئوليتهم وضحاياهم فى الحرب العالمية الثانية ، مهمة وحية بعد مضى خمسة وعشرين عاما . ان هذه المسألة هى محور مسرحية سارتر رغم انه يحل المسألة بصورة نسبية .

لقد مر بطل المسرحية فرانتس فون غيرلاخ فى علاقاته بالنظام الفاشستى بكل المراحل من الاحتجاج الضعيف على الارهاب الهتلرى فى بداية الامر الى تعذيب الانصار السوفييت بالقرب من سمولينسك . وها هو ذا يحاول أن يجد المذنب والمسئول عن هذه النهاية التراجيدية التى وصل اليها مع كل المانيا . لقد حاول وهو يدرك مشاركته فيما جرى أن يلقى باللوم والذنب على « عصرنا الرهيب »ومنطقه قائلا : « انه العصر الذى لا نملك أمامه شيئا من أمرنا ، فقد بدانا باسم « المانيا العظيمة » ، باسم المصالح العليا للأمة ، وكانت النتيجة شيئا لم نرغب فيه البتة . انه القدر ... تقلبات القدر . واذا كانت المسألة تكمن فى « عصرنا الرهيب » اذن فليس هناك مذنبون . واذا كان الناس مسئولين عن جرائم الفاشية ، فجميع الناس مذنبون جميعهم ؟ ثمانون مليونا من الناس ؟ ولكن هذا أمر لا يمكن قبوله . والنتيجة أنه لا أحد مذنب بما فى ذلك هو ـ فرانتس فون غيرلاخ .

ان فرانتس بحاجة الى اقناع نفسه بالرغم من الحقائق الواقعة ، فضحايا الحرب الذين يرزحون تحت الأنقاض فى المانيا مظلومون ، ولذا فان الأطفال ينتفخون من الجوع ولا امل فى بعث

البلاد ، انه لا يعرف لنفسه خلاصا من عقدة الذنب الا بهذه الافكار . ان المانيا يجب ان تنفق ، والا اصبحت مجرما عاديا . وبعد ان اصطدم بحقائق الحياة فضل السجين الذى قضى ١٣ عاما وراء الجدران ان ينتحر . وتنتهى الرواية بكلمات بطل الرواية المأثورة التى تسمع بواسطة آلة التسجيل بعد موت فرانتس : « من أين جاءت هذه المرارة التى فى فمى ؟ من الانسان ؟ من الوحش ؟ من انا ؟ انه مذاق العصر .

من الاسهل طبعا أن نلقى بالذنب على العصر . ولكن هل يمكن تفسير الكثير بهذا الاسناد غير المحدود . ان العصر الواحد يولد الشر بجانب الخير ، والجبان بجانب البطل والضحية والجلاد . ان المسألة تكمن فى تحليل مسار الحياة الاجتماعية الواقعى ، والاخذ بعين الاعتبار علاقات القوى الاجتماعية والطبقية واثرها فى موقف كل فرد على حدة .

ان سارتر ليس فى صف فرانتس فى هذه المسألة وان الاتجاه الى العصر لا ينال رضاه . انه يحاول العثور على مخرج بتحليل تصرفات الانسان العملية . ولكن موقف سارتر ليس منسجما لا نظريا (لأنه بصفة عامة واقع تحت تأثير المثالية) ولا سياسيا (وهنا يظهر تصوره الطبقى) . وكثير من معاصريه فى العالم الراسمالى لا يذهبون الى أبعد من تأمل المصائب والفظائع الملازمة لعالمهم .

ان تجاوز تناقض « الفردية والظروف » لا يتم بالغاء الظروف وكما هو واضح فان هذا لا يؤدى الا الى الوقوع فى تناقضات جديدة أكثر حدة . ولا يساعد على النجاح الغاء الطرف الآخر من التناقض وهو حرية الارادة لدى الفرد ، وقد ادت هذه المحاولات الى القول بالحتمية المطلقة لكل احداث التاريخ وعجز الانسان المطلق. ولا يبقى للانسان الا ان يقبل ، راضيا او غاضبا ،

ما يصنعه التاريخ . وليس فى طاقته أن يحسن أو يغير أو يزيد الاحوال سوءا .

وهكذا يصل حتما الى نتيجة غير سارة : على الانسان الالتزام باطاعه الأوضاع القائمة مهما كانت معادية له ، والاستسلام التام لتيار الأحداث ولمصيره .

ان موقف المنظرين البرجوازيين فى مسألة العلاقة بين نشاط الانسان الحر وقوانين التطور الموضوعية للعالم كثيرا ما تقود الى استنتاجات سياسية رجعية ، كما انه غير صحيح من الناحية العلمية . وسيكون تبسيطا منا أن نرى (تشكيلة) علاقة « الفرد ــ الوسط » ، و « الانسان ــ الظروف » خطأ نظريا فحسب ،فالعجز الذاتى لهذا أو ذاك من الافراد عن فهم حقائق الاوضاع القائمة ضلال مؤقت . وكان يكفينا فى هذه الحال أن نشير الى واقع الضلال لكى يختفى (*)

ولكن الأمر أعقد بكثير من هذا . ان نظريات الفلاسفة التى نحن بصددها انما تصف فى درجات متفاوتة من الانتظام ، التناقضات الناجمة عن النشاط الفعلى للناس وعن « الصور الممسوخة » للأحداث التاريخية . وتتلخص المهمة فى أن ندرس الوجود الواقعى للانسان فى ظروف الرأسمالية ونميز بدقة بين المحتوى الحقيقى لنشاط الانسان وبين « الأشكال الممسوخة » له ، أى تلك الأشكال التى تشوه المحتوى الحقيقى للنشاط والتى تظهر فى مجتمع تسوده الملكية الخاصة ويسود فيه استغلال الانسان للانسان . وقد حل هذه المسألة كل من ماركس وانجلز . وقد وضحوا هذه الواقعة والأسباب التى تجعل فلاسفة البرجوازية يقدمون هذا التحريف كما لو كان هو جوهر الأمر . وينشأ هذا الوصف من الظروف الواقعية لحياة الانسان ، حيث تخضع كل شىء للعلاقات الاجتماعية الرأسمالية . وهو ليس فقط يتعارض مع الممارسة العملية بل وضرورى لكى تجرى

الامور بصورة عادية فى المجتمع الرأسمالى . فاذا كان الانسان غير حر فى هذا المجتمع ، ويخضع لأوامر جهاز الدولة البيروقراطى فان عزاءه يكون فى التصور الفكرى لحريته واستقلاله عن الواقع الكئيب والفعلى للأسف . واذا كان معنى الحياة يتلخص فى التمتع بالاشباع البدائى للرغبات والمسرات فلا يبقى الا أن نبحث عن رسالة الانسان الحقيقية فى هذا المجال .

ان المفكرين البرجوازيين الذين لا يرون المخرج أو لا يريدون رؤيته ، مرغمين حتى وهم ينتقدون العلاقات الاجتماعية (بالرغم من رغباتهم) ، أن يقتصروا على وصف هذه العلاقات والتكيف معها والسبب فى ذلك يرجع الى أن الكثيرين منهم وهم يقاومون هذه الأفكار أو تلك عن العالم لا يرون داعيا الى مس العالم الذى انتج هذه الأفكار . مع أن التناقض الذى ينشأ فى الأفكار هو دائما تعبير أو انعكاس للتناقضات فى حياة المجتمع .

ولهذا السبب لا يكفى أن نلقى جانبا بالنظرات الخاطئة . بل ولا يكفى أن نواجهها بالأفكار الصحيحة . فحتى بعد هذا تبدو الأفكار والنظرات الخاطئة كما لو كانت ذات دلالة عامة ، اذا لم تفسر وتدحض .

الأوهام والحقائق الواقعية

ولكى نتجاوز الموقف النظرى الخاطىء لا بد أولا ان نعرف مصدر التناقض النظرى . لقد وجد ماركس مصدر كل الصعوبات التى تركزت حول ما يدعى بنظرية « الوسط » أو « البيئة » (« الظروف ») ، فى وقائع النشاط العملى ، فى تقسيم العمل .

ويطلق عادة اصطلاح تقسيم العمل على ظاهرة قريبة من تقسيم العمل ولكنها ليست مطابقة لها وهى التخصص . فمن

المعروف ان الناس يحترفون أعمالا مختلفة ولديهم تخصصات مختلفة . وتجد هذه التخصصات تعبيرا عنها فى ما يلى : اولا ، انهم يعالجون مواد مختلفة (كاختلاف موضوع عمل الفلاح والخراط ، وثانيا ، يعملون بأدوات عمل مختلفة ، وثالثا ، تختلف طرق ووسائل عملهم . والتخصص هو الشرط الضرورى لكل عمل ، وفى الظروف العادية لا يؤدى الى اية نتائج سلبية . وفوق ذلك فهو لازم لتطور الانتاج لأنه يسهل نمو انتاجية العمل . فالمتخصص يركز على نوع من النشاط ويتقن انجازه بسرعة وعلى نحو أفضل . ان تاريخ التكنيك يشير الى ان التخصص شرط لنمو القوى المنتجة ، وهو على وجه الخصوص مقدمة لاستخدام الآلات .

وخلافا للتخصص فان تقسيم العمل يعنى التقسيم الاجتماعى للعمل حيث يتجزأ النشاط الحيوى وتنمو بعض جوانبه فتصبح وظيفة بعض الناس : فيمارس الناس وظائف مختلفة كالعمل اليدوى والعمل الذهنى والتخطيط والتنفيذ ، والقيادة والطاعة واقتراح الأهداف وتحقيقها ... الخ ...

ان النشاط المتكامل للانسان ينقسم الى « أجزاء » وتغدو هذه الأجزاء « نصيب » هذه المجموعة أو تلك . ويصبح التكامل والوحدة من وظيفة المجتمع ككل ولكن ليست وظيفة كل فرد فيه بأى حال من الاحوال ، فهو محكوم عليه بأن يمارس طول حياته وظيفة جزئية ضيقة وذات غايات محددة . وتتم العلاقات والروابط المتبادلة بين هذه الوظائف عفويا كقوى متوازية ، لكل واحدة منها وجهتها المختلفة وأحيانا المناقضة للأخرى . ويبلغ تقسيم العمل ، فى ظل أسلوب الانتاج الرأسمالى أقصاه ، حيث يصبح كل فرع أو نوع من النشاط حكرا تستحوذ عليه جماعة من الناس ، وتكاد لا ترتبط بل لا ترتبط البتة احيانا من حيث مصالحها ببقية الأفراد فى المجتمع .

وينتج عن تقسيم العمل عدد من النتائج الأساسية والمهمة . واول ما يلاحظ هو أن تقسيم العمل لا يؤثر فى النشاط فقط بل وفى نتائجه . وكما تكون بعض أنواع النشاط احتكارا تاما لهذا أو ذاك من الناس والذين ينحصرون كلية فى مجالهم الضيق من النشاط الذى اختاروه أو فرض عليهم وهكذا أيضا يعدو نتاج عملهم امتيازا خاصا بهم . ولهذا السبب يخلق تقسم العمل الملكية الخاصة وما يترتب عليها بالضرورة من استغلال الانسان للانسان. وهذا لا يمكن تجنبه فى مجتمع ينقسم الى طبقات متناحرة حيث تستأثر احداها بعمل الاخرى . وأكثر من ذلك فان استخدام فرد لآخر أو جماعة لأخرى كوسيلة لتحقيق اهدافها يظل فى هذه الظروف الشكل الوحيد لاقامة العلاقات بينهم . انى أحصل على ما أريد من الناس بجعل نوع من المنتجات التى يحتاج اليها الناس متوفرة لدى . انهم بمثابة وسائل بالنسبة لى ، وبالعكس فأنا وسيلة ليس الا بالنسبة اليهم . وبما انى لا ابالى بمصالحهم ، كما أنهم لا يبالون بمصالحى (فنحن جميعا هم وانا منغلقون على أنفسنا فى نطاق مصالحنا الخاصة) وتؤدى روابطنا هذه الى جعل كل واحد منا وسيلة بالنسبة للآخر .

ان تقسيم العمل لا يحول الانسان الى وسيلة لتحقيق أهداف غريبة عنه بل يجعل الانسان جزءا من وظائفه الانسانية . وكثيرا مايكون جزءا صغيرا .

لقد كتب انجلز قائلا : « ينقسم الانسان مع تقسيم العمل . ان التطور الأوحد لوظيفة واحدة يضحى بالمواهب الروحية والجسدية الأخرى . ان تشويه الانسان يزداد بنفس القدر الذى ينمو به تقسيم العمل » (١) .

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، المجلد ٢٠ ص ٣٠٣

ان تجزئة الانسان تصبح فى الحقيقة شاملة . ان احدى نتائجه المتطرفة هى التخصص الضيق الذى يتزايد باستمرار ، محولا النشاط المهنى الى عمل عفوى ، خال من الجوهر الابداعى وغريب عن كل ما عداه . وهكذا يكتسب التخصص صورة مشوهة « للغباء » المهنى . ولا يمكن حصر الكتب التى تصف هذه الظاهرة فى الأدب المعاصر .

وهناك الكثير من الشهادات الذاتية للعمال انفسهم . فقد صرح العامل السويدى بمرارة : نحن العمال العاديون نمر بالقرب من الحياة ، اننا نعنى بالنسبة للديموقراطية والحرية ما يعنيه الزبل بالنسبة لنمو النباتات . وفى خلال ٢٨ عاما قضيتها فى صناعة الغزل والنسيج لم أشعر بأى لون من ألوان فرحة العمل » .

كل هذا عبارة عن نتائج مباشرة لتطور أسلوب الانتاج الرأسمالى . ولقد استطاع الكاتب التشيكى ذو البصيرة النافذة ك . تشابك أن يلاحظ ويعكس فى انتاجه بعض الصفات والجوانب المميزة لهذا النظام . وهذا ما يقوله أحد أبطال مسرحية له هو المهندس الأول للاتحاد الاحتكارى لانتاج الانسان الآلى دومين : « الانسان هذا الكائن الذى يشعر بالفرح ، ويعزف على الكمان ويحب النزهة ويشعر بحاجة الى عمل أشياء كثيرة ، لا داعى لها تماما ، فاذا دعت الحاجة فلنفرض النسج والأعمال الحسابية ولا يزينون محرك الديزل بالحلى والزينات » .

والنتيجة الاخرى لتجزئة الانسان هو ما سبق الحديث عنه الا وهو تحويله الى وسيلة لتحقيق أغراض غريبة عنه . ويصبح الانسان جزءا ، وحلقة وعنصرا ، فى أوجه النشاط الاجتماعى المترابطة . ويصبح هذا الترابط خارج نطاق سيطرته وخارج نطاق فهمه ايضا ، كما يصبح المعنى الاجتماعى لنشاطه أى مكانة الاجتماعى فى نظام تقسيم العمل مستقلا تمام الاستقلال عن الانسان نفسه ــ فهو لا ينشط من اجل اهداف وضعها بنفسه ،

انما يخضع جهوده لتحقيق أهداف أشخاص آخرين او مطالب نظام الانتاج .

يقول ايريك فروم بلهجة ساخرة ان المجتمع المعاصر يحتاج الى اناس يعتبرون أنفسهم أحرارا ومستقلين ، وفى نفس الوقت يطيعون مختارين ويعملون ما هو مطلوب منهم ، أن يكونوا جزءا مصقولا بعناية من الآلة الاجتماعية ، ويتضح هذا قبل كل شيء فى أن الانسان يشتغل بعمل ما دون أن يعرف الدلالة الاجتماعية لهذا العمل ، والذى لا يعجبه أيضا ، أنه ببساطة لا بد أن يعمل شيئا ليعيش . ويحترف أغلب الناس المهنة أو الاختصاص نتيجة لظروف عفوية وبمحض الصدفة وحتى صفة العمل الحرفى نفسه (الوسائل والطرق التى يعملون بها ، ارتباطها بفروع الانتاج الأخرى) شيء مجهول ، لا يعرف من أقره ولماذا ، وما يجب الا يطاع (أما لماذا وما هو السبب ، وتحت تأثير أية عادة ، بالوسائل التربوية ، أم بالترهيب ، فشيء غير جوهرى البتة) .

ويفقد الانسان خصائص المبدع ، لأنه يبعد عن الجوانب الهامة للنشاط مثل اختيار الهدف ، وتوجيه العمل .. الخ . ويتحول الى لولب جزء صغير من آلة الانتاج الرأسمالى ويحنى هامته مختارا امام أية آلة آملا على قول نوربرت فينر عن الذين « يعبدون الآلة » ، أن يهرب من المسئولية الشخصية عن اتخاذ قرار خطير أو مهلك .

ويستشهد ج . ف . بليخانوف بقصة من قصص الكاتب الروسى المشهور فى السبعينات من القرن الماضى ن. ا. ناوموف . وبطل هذه القصة ينظر نظرة سلبية الى مسألة طبيعية جدا كالتفكير فى العالم وما يحيط به ، فهو يرى أن على الفلاح أن يطرد مثل هذه « الوساوس » باعتبارها أمورا ضارة . ويؤكد احد الفلاحين ذلك قائلا انه « لايمكن » التفكير بهذه الصورة .

ويسأل المؤلف قائلا :

« لماذا لا يمكن ، فسر لى ؟ »

– ان هذا ليس عمل الفلاح وليس عمل الرجال ، ما شأننا والتفكير . ان عمل الرجال يا والدى واحد . ان يحرث ، ويبذر ، ويهتم بالمزرعة ومراعاة أوامر السادة .

– لا تفكر مهما حدث من حولك ؟

– لا أفكر مقدار ذرة ..

ويلخص بليخانوف « الفلاح يحرث ويبذر ، ويدير امور مزرعته ، ويراعى أوامر الرؤساء ولكنه لا يتعمق بأى حال من الاحوال » فهذا ليس شأنه . ان هذا واجب الذين يعيشون فى العواصم وعليه أن يعد الظروف الاقتصادية التى تمكنهم من التفكير ، أى انه يعيد الأمر من جديد ، يحرث ويبذر ويدير أمور المزرعة ... الخ . وفى ظل تقسيم العمل الحالى تغدو « الافكار » شيئا فائضا عن الحاجة ، بل انه ضار بالمنتج .

يزداد « ابتعاد » الناس عن الجوانب الخلاقة من الانتاج ، مع تعميق تقسيم العمل . وتصبح هذه الوظائف الخلاقة نصيب مجموعة صغيرة جدا من المختصين . كتب الفيلسوف المثالى أ. شبيلنجر فى الثلاثينيات من هذا القرن «تتجمع فى جانب واحد جماهير غفيرة ترعاها الآلات يعملون من أجلها ويعيشون من أجلها ... وفى الجانب الآخر تتميز قلة من الناس ، وهم الملاك وأصحاب العمل ، والمديرون ، والمخترعون والمهندسون » .

وهذا الوضع معترف به الآن فى الكتابات البرجوازية . وينتج عن هذا الوضع بالضرورة اللا مبالاة وعدم الاهتمام بكل ما هو خارج نطاق العمل اليومى للانسان .

ولكن الامر لا يقتصر على هذا . ان تقسيم العمل الذى يتم بصورة عفوية يبدو شيئا مفروضا من الخارج على كل فرد فى المجتمع ، انه قدر محتوم ، يجب الخضوع له كما لو كان قوه من قوى الطبيعة ، كالزلزال أو الطوفان . ان عالم الأشياء يعيش حياة مستقلة ، ويكتسب منطقا خاصا يضفى على الأشياء الاراده والعقل بينما يفقد الانسان خصائصه الفردية ويتحول الى شيء من الأشياء مثله مثل الكائنات المادية الاخرى ، ولذا يخضع لقوانين تفاعلها وتطورها .

وفى النهاية تغدو الهيئة الاجتماعية بالنسبة لكل فرد شيئا خارجيا ومستقلا عنه ويخضعه بصورة تامة . ومن هنا يتكون التصور بأن الانسان لا يصنع عالمه ـ عالم علاقاته بالناس بل ان هذا العالم يصنع الانسان ، « كقوة » مستقلة عنه .

وتكون النتيجة ظهور نظرية خاطئة قائلة بأنه يتم تطور المجتمع وفقا لقوانين خاصة به لا تنطبق على قوانين نشاط الناس .

لقد اقتربنا من فهم حالة ، تكون فيها منتجات العمل ليس مجرد أشياء فقط بل أيضا علاقات اجتماعية ومفاهيم نظرية ، ... الخ ، تفلت من سيطرة من أوجدها ثم تمارس السيادة عليه . ويتم بذلك تشويه التعبير الحى عن جوهر الانسان الى درجة ملموسة . فعلاقات الناس تبدو كما لو كانت مستقلة عنهم وهم خاضعون لها . ان الانسان ليس الا حلقة فى سلسلة الاحداث والأشياء ، مرتبط بهذه السلسلة ولذا يتحول الى شيء ، الى لعبة فى يد التاريخ الذى يستخدم الانسان لادراك غاياته الخاصة التى لا يعرفها غيره . ومن الواضح ان الحرية فى هذه الظروف ليست الا وهما .

فلنلق نظرة فاحصة على أثر تقسيم العمل فى حرية شخصية الانسان . اننا نرى أهدافا مشتركة بين الفرد والمجموعة واحيانا بينه وبين المجتمع ككل . مثل الدفاع عن الوطن ، والطموح لتغيير

الوضع الاجتماعى والاقتصادى ، وتجنب اضطهاد الطاغية ... الخ . ان هذه المصالح العامة والغايات الملائمة لها تتناسب بصور مختلفة مع قوانين تطور المجتمع : انها يمكن أن تتجاوب او تتناقض وان تطابق السير الموضوعى لتطور المجتمع او تعاكسه . ففى الحالة الاولى نحن أمام مصالح عامة حقا وفى الحالة الثانية فهذه المصالح العامة ليست الا وهما فى أذهان أولئك الذين يسعون لتحقيقه . وبما أن النشاط الحر هو الذى يقوم به الانسان باسم أهدافه الخاصة (خاصة أو عامة) فلا يمكن حتى الحديث عن الحرية فى مجتمع ينقسم الى طبقات متناحرة ، حيث مصالح الانسان واهتماماته ليست خاصة به ، وليست شخصية بل تبدو كما لو كانت مفروضة عليه من الخارج . والأهداف الاجتماعية ، التى تعبر عن ضرورة التطور التاريخى ، تبقى خارج نشاط الأغلبية الساحقة من الناس ، وغالبا ما تكون نتيجة عفوية للتطور الاجتماعى . واذا حدث أن تطابقت مصالح الأفراد والمجتمع فهذا التطابق يكون مؤقتا ، كقاعدة عامة ، ومصلحة المجتمع فى هذه الحالة بعيدة عن المصالح الاجتماعية الحقيقية كما أن مصلحة الفرد أيضا لا تتطابق مع مصلحة الأفراد الآخرين .

كيف كانت الحالة فى المرحلة التى نضجت فيها مقومات الثورة البرجوازية ؟ ان انتقال المجتمع من الاقطاعية الى الراسمالية يحل تلك التناقضات التى ظهرت فى ظل النظام الاقطاعى ، ولذا يتجاوب مع اتجاه التطور الموضوعى ، ويعبر عن مطالب اجتماعية جذرية . وفى نفس الوقت يلبى هذا الانتقال مطالب ما يسمى بالفئة الثالثة وهو سبب اشتراكهم الفعال فى الثورة التى اطاحت بالنظام القديم ولكن حتى أولئك الذين كانت لهم مصلحة فى الاطاحة بنظام العبودية والاقطاع ، لا يعرفون تماما محتوى عملهم ، وهم من باب اولى لا يعرفون بدقة الانظمة التى ستخلف الاقطاع البغيض ، بل انهم يرسون فى خيالهم صورة قريبة من صورة المستقبل المنشود . وهذا نفسه يحدث فى

المجتمع الرأسمالى ، الذى يصورونه انتصارا للحرية والاخاء والمساواة .

ونحن فى هذه الحالة ، على الأقل ، أمام مصلحة الأغلبية ، مهما تفاوت المشتركون فى الثورة فى وعيهم لهذه المصلحة . وعندما تذهب طبقة لأن تصور مصالحها الضيقة كما لو كانت مصلحة المجتمع بأسره فهذا ليس حدثا نادرا فى التاريخ ومثل ذلك محاولة تصوير المجتمع الراسمالى على انه « دولة الرخاء العام » حيث الجميع متساوون ، وتزدهر حياتهم على قدم المساواة ، ولا هم للدولة الا الاهتمام بالخير العام ومصلحة الشعب .. وتستخدم الطبقة السائدة سلطة الدولة وجهاز الدعاية القوى ، المزود بوسائل تكنيكية حديثة وما يسمى عادة بوسائل الاتصال العام : كالراديو والتليفزيون والصحافة والسينما ، لتوهم الناس أن مصلحة هذه الطبقة السائدة هى مصلحتهم ايضا (*)

ومن الجلى انه حتى اذا نجح هذا الوهم فان هذه الاهداف والمصالح تكون ذات طابع وهمى .

كما انه ليس من السهل حتى مع وجود وسائل الاقناع الحديثة ، اقناع جماهير الشغيلة التى تعانى من الاستغلال بان الراسمالية هى افضل أشكال الأنظمة الاجتماعية .

ان الصدام دائم فى مجتمع الطبقات المتناحرة ، وكذلك صراع الاضداد ، اى صراع المصالح الطبقية التى لا يمكن أن تتصالح . ان هذا الصراع الطبقى بالذات هو القوة المحركة للتطور التاريخى . ويظن الناس ان التطور الموضوعى للمجتمع اى المصالح الواقعية تتحقق بعيدا عن مصالح هذه الطبقة او تلك بل ورغما عنها .

ان كل فرد غالبا ما يكون دون وعى منه منفذا لمهمات التطور التاريخى ، فهو اذ يسعى نحو أهدافه الخاصة ، يخدم أهـداف التاريخ وكثيرا ما تكون غريبة عنه . وهذا يعنى انه ليس حرا .

ان الحرية المحددة (أو غيابها) تجـد تعبيرها فى الحقـوق الفعلية ، والامكانيات المادية ، التى يملكها (أو لا يملكها) الانسان فى مجتمع معين وكلما قلت حقـوقه الفعلية وكانت واجبـاته مفروضة عليه من الخارج يكون اقل حرية . ان الطبقة المحرومة من ملكية وسائل الانتاج تكون لهذا السبب مستغلة (بفتح الغين) أى غير حرة لأنها لا تملك الحقوق الفعلية لتوجيه وادارة الانتاج ، والقضـايا الاجتماعيـة . فهل تكون الطبقـة السـائدة ـ أى أولئك الذين يملكون أدوات الانتاج ـ حرة فى هـذا المجتمع ؟ بالطبع فان لديهم حقوقا أكثر وبهذا المعنى هم أكثر حرية . ولكن حريتهم محدودة بانتمائهم الى الطبقة السـائدة ، والأهم من ذلك انهـم لا يستخـدمون فى نشاطهـم الا جـزءا من مواهبهـم واستعداداتهم .

الا تشهد على هذا شهوة الربح المتغلغلة فى كيـان البرجوازى واننى غدا أسيرا لها !

فى ما وراء الانتاج المادى

لقد لاحظ المفكرون التقدميون فى مطلع العصر الرأسمالى الأثر السيىء لتقسيم العمل فى الحيـاة ، وفى النشاط بل وفى صحة الانسان . فلقد قال فردريك شيلر فى معرض حديثه عن تقسيم العمل ، انه لا يكاد يكون هدف التاريخ الوحيد ، واستعباده للانسان شىء لا يمكن تجنبه . « لقد تم الفصـل بين القـوانين والأخلاق ، ولم يعد العمل مصدر متعـة ، وانفصلت الوسيلة عن الغاية ، والجهود عن المكافآت . ان الانسـان المربوط دائما بجزء من الكل أصبح هو نفسه مجرد جزء . وهكذا يقضى بالتدريج على

الحياة الفردية العينية ، فى سبيل أن يحيا شىء مجرد هو الكل لكى يسند وجوده الهزيل » . وكتب فى مكان آخر « ومهما كانت فائدة العالم ككل ، التى يمكن أن يحققها من النمو المشتت والمقسم للقوى الانسانية فانه ليس بالامكان انكار الافراد الذين مستهم قوة هذا الكل يعانون من وطأة هذا الهدف الكونى » .

ويبرز تناقض صارخ بين ما يعرفه الفرد ويقدر عليه وبين قدرات ومعارف وامكانيات المجتمع ككل ، وبين ثرواته المادية والروحية . وفى الواقع فان كل انسان مشغول بعمله الخاص . واذا أخذنا فى الاعتبار ان كل نشاط يفترض حدا معينا من المعارف المهنية والقدرات والاعداد ، فانه يبدو من وجهة النظر النفعية أن كل ثروات الثقافة الانسانية الأخرى لا تلزم الفرد أبدا ، بعد الحصول على المعارف المهنية . فما حاجة الخراط الى الموسيقى ، أو الرياضى الى علم الوراثة ؟ وما حاجة المشتغل بالسيبرنيطيقا الى العضلات القوية ؟ وهكذا يخضع الانسان الذى تحول الى جزء ، بعد أن ضحى به فى سبيل الكل المجرد . وقد يسأل الناس : وكيف يمكن تنظيم الوظائف الاجتماعية المعقدة ، اذا لم ينزل أفراد مختلفون الوظائف المختلفة ؟ لا يمكن أن يشتغل الناس جميعا بنفس الوظائف . كما انه فوق ذلك لدى الناس استعدادات مختلفة ، فما هو معروف وجلى بالنسبة لأحدهم لا يستطيع الآخر أن يفهمه أبدا . هناك من هو موهوب فى الموسيقى ولكنه لا يملك مواهب الرسام ، وثالث يملك مواهب مختلفة تماما عما سبق .

ويبدو كما لو أن اى حديث عن ازالة أو تجاوز تقسيم العمل ، وعواقبه ليست الا أضغاث أحلام ، وطوباوية لا أساس لها ، وفى أفضل الاحوال ، فان هذا الحديث بعيد عن التقدير الواقعى الصائب وهو ليس أكثر من مزاج رومانطيقى ، لا يتفق والحكمة . ولا شك أنه من الأصوب ان نزيل تقسيم العمل وكل عواقبه بضربة

واحدة . ولكن عليك أن تقوم بالوظيفة التى يحددها لك نظام تقسيم العمل ما دامت الراسمالية قائمة .

وسوف تبقى اللعنات والادانات الموجهة الى تقسيم العمل صرخات عاجزة غير قادرة على شيء اذ لم تتجاوب معها امكانيات واقعية وضرورية لتغيير الاوضاع القائمة . ان عدم الرضا عن اثر تقسيم العمل فى نشاط الانسان يجب أن يحثنا على دراسة هذه الظاهرة بعناية . ان الذى يلزم هو التحليل العلمى وليس مجرد التفكير وفقا لمقتضيات التفكير السليم الذى كثيرا ما يكون بعيدا جدا عن العلم بل ومعارضا له . وتقتضى النظرة العلمية اقرار حقيقة أساسية فى هذا الصدد وهى أن الصورة الراهنه لتقسيم العمل ليست شيئا فطريا كامنا منذ البداية فى نشاط الانسان الحيوى . والشاهد على هذا وجود المواد الوفيرة التى جمعها علم التاريخ . ان الأسباب التى أدت الى ظهور تقسيم العمل ذات صفة تاريخية عابرة ، ويمكن ازالة هذه الاسباب فى مجرى التطور التاريخى .

ان ظهور تقسيم العمل كان مرتبطا بمستوى منخفض جدا من الانتاج وبقوى انتاج غير متطورة . ولكن فى مجرى التقدم التاريخى الذى ازدادت فيه سيطرة الانسان على الطبيعة وعلى علاقاته الاجتماعية ، وصل المجتمع الى لحظة تتناقض فيها قوى الانتاج مع تقسيم العمل القائم ، بحيث أصبح عقبة فى سبيل تقدم التكنيك والعلاقات الاجتماعية . ونقرا فى راس المال « ان الصناعة الضخمة تجعل من مسالة الاعتراض على تغيير العمل مسالة حياة او موت ، ولذا يمكن أن يوجد عمال متعددو المؤهلات ، وهذا قانون عام للانتاج الاجتماعى ويجب تكييف العلاقات وفق ذلك حتى تسير نحوه بطريقة عادية . وهناك مهمة أخرى نطرحها كمسالة حياة او موت وهى : تغيير الوضع الفظيع للعمال الاحتياطيين الأشقياء ، الذين يحتفظ بهم راس المال كاحتياطى

لحاجاته فى الاستثمار ، بصلاحية الانسان المطلقة لحاجته المتغيرة الى العمل : استبدال العامل البسيط القادر على عمل جزئى ، الذى يقوم بوظيفة اجتماعية جزئية ، بالفرد ذى المواهب المتعددة ، الذى تغدو الوظائف الاجتماعية المختلفة ، التى تتلو الواحدة منها الأخرى وسيلة لنشاطه الحيوى » (١) .

واذا ألقينا نظرة على الوضع المعاصر ، نجد ان الاتجاهات التى لاحظها ماركس قد تطورت بصورة أساسية ، واعترف بها الجميع . وللتدليل على هذا سأستشهد هنا بأقوال الاقتصادى الأمريكى ب. دريكر ، يفترض أن المشكلة الرئيسية للمؤسسات الصناعية المعاصرة هى ايجاد ظروف يستطيع فيها العامل ان ينجز عملا متكاملا ، ويطبق الخطة بروح المسئولية . وليس مصادفة أن يولى هذا الاهتمام الكبير للبحث عن الطرق والوسائل التى يمكن بها التغلب على مستوى العامل المتخلف ، وتحويله الى عامل قادر على تنفيذ وظائف أكثر حجما من تلك التى تحددها الآلات. ويعوق تقسيم العمل تطور ونمو المستوى الثقافى للعامل ، وهو لا شك أمر هام حتى من وجهة النظر الاقتصادية الخالصة . ان ٣ر٥٪ من الزيادة فى الانتاج بالولايات المتحدة الأمريكية كان نتيجة لنمو كفاءة العمال ، واستخدام العلم فى الانتاج ، واما نسبة الزيادة التى تعود الى تحسين الادارة والتنظيم فكانت ٢ر٥٪ - على حساب نمو العمالة وزيادة الرأسمال الأساسى .

ومن البديهى أن نمو مستوى التعليم والثقافة لدى العمال لا يستغرق كل مسألة تقسيم العمل وبالتالى لا يكفى لتجاوزها . فهى ترتبط بوضع الفرد فى المجال السياسى ، وبمساهمته فى تحديد الاهداف الاجتماعية ، وبتحويل كل عمل مهنى متخصص ، الى نشاط متكامل . وبهذا المعنى فقط يمكن الحديث عن تجاوز

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، ج ٢٣ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

تقسيم العمل . فليس الأمر اذن فى الغاء العمل المتخصص ، الذى يركز على نشاط بعينه ، والا اصبح ذلك تجاوزا لتقسيم العمل على انه الغاء لكل الاختلافات فى المهن ، فلا علماء ولا فنانين ولا مهندسين ، ولا تكنيكيين ، بل كل واحد يعمل كل شىء بهذا القدر وذاك ، أى يأخذ من كل حرفة بطرف . لا شك انه يمكن من حيث المبدأ التوفيق بين أنواع النشاط المختلفة من قبل فرد واحد ، فأينشتاين على سبيل المثال كان عازف كمان جيدا ، والموسيقى الروسى المشهور • بورودوين كان عالم كيمياء كبيرا ، وزيادة أوقات الفراغ تجعل مثل هذا التوافق عملا ممكنا ليس لقلة من الناس بل لكثيرين منهم ، وربما للأغلبية .

ولكن ليس هذا جوهر الامر . فان تقسيم العمل يحول الى « ملكية » احتكارية ، جوانب من نشاط بعض الناس الضرورية والمتكاملة ، الذى يتحقق كليا فى وحدة هذه الجوانب ، وليس الاقتصار على مهنة أو اخرى (ولنتذكر الفرق بين مفهومى التخصص و « تقسيم العمل ») . ولذا فان تجاوز تقسيم العمل يعنى قبل كل شىء الوحدة فى نشاط كل انسان ، وطرح الأهداف وتحقيقها . ويشارك كل انسان فى هذه الظروف مشاركة مباشرة فى تخطيط الاهداف ذات الاهمية الاجتماعية ، وهى لا تناقض أهدافه الخاصة بل تتطابق معها ، وتتجلى فى وحدة الأعمال الادارية والتنفيذية كما أن قواعد واصول النشاط والعمل لا تملى من خارج مضمونها بل يمليها النشاط والعمل نفسه وليس من جانب أشخاص آخرين ، ونتيجة لذلك لا يصبح الابداع امتيازا « للمختارين » بل يصبح السمة الأساسية لكل نوع من النشاط .

وعلى هذا الأساس تظهر امكانية واقعية تماما لكى يمارس كل فرد حرية حقيقية . وكلما قل توجيه النشاط الانسانى بوسائل خارجية لا تمت الى محتوى العمل بصلة كلما زادت امكانية الانسان فى تحديد أهدافه وتحقيقها بنفسه ، وكلما تحرر

من العمل الذى يشبه عمل الآلة اى ذلك العمل الذى يقتصر على تكرار واعادة الانتاج بصورة ميكانيكية وهـذا بالطبـع يزيد من حريته . ولكن فى ظروف قوى الانتاج الناميـة ، يزداد باطـراد تحرير الانسان من الاعمال التى لا تناسبه كانسان ، وبذلك يتسع مجال حريته بشكل ملحوظ .

والبكم ما كتبه بهذا الصدد مؤلف « رأس المال » : « تبدأ مملكة الحرية فى الواقع حيث ينتهى العمل الذى تفرضه الحاجة والغاية الخارجية ، اذن فهذه المملكة وفقا لطبيعة الأشياء تقع وراء مجال الانتاج المادى . ويمكن ان تتلخص الحرية فى خاتمة المكان ، فى ان الانسان الجماعى ، والعامل الجمـاعى ، يوجهـان عملية التمثيل بينهما وبين الطبيعة ويخضعانه لرقابتهم العامة ، بدلا من ان يسيطر عليهما كقوة عمياء ، ويحققان ذلك بأقل قدر من القوى وفى ظروف جديرة بطبيعتهما الانسانية ومطابقة لها . ولكن رغم هذا تظل هذه المملـكة ضرورية . وفى ما وراءها يبدأ نمو القوى الانسانية ، التى تحدد هدفها فى الحرية الحقيقية التى يمكن أن تزدهر فى مملكة الضرورة ، كأساس لها » (١) .

ان الانسان المتحرر من الهموم اليومية للحصول على رزق اليوم الضرورى ، والذى يتمتع باوقات فراغ كبيرة ، يكون قادرا على الارتقاء بمواهبه وقواه ، واختيار الحقـل الذى يمارس فيه استخدام هذه المواهب . وهكذا فان تقدم قوى الانتاج ، والتكنيك يخلق المقدمات الموضوعية لتجاوز تقسيم العمـل وكل عواقبـه السلبية . ولكن هذه الظروف كثيرا ما تفهم فى صورة غريبة ، تجعل من انتقدم التكنيكى صنما .

وفى هذه الحالة يفهم التطور والنمو على انه النتيجة المباشرة للتغير التكنيكى : وهو اما ان يهلك الانسـان ، ان فقد السيطرة

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ، المجلد ٢٥ القسم ٢ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

عليه ، أو يخلصه ، بتحقيق الوفـرة والازدهار والفـراغ تحت الرعاية الساهرة واليقظة المستمرة للمحسنين من التكنوقراطيين

ان مثل هذا التصور يشوه الوضـع الحقيقى للمسـالة . فالمستوى التكنيكى فى حد ذاته لا يحدث كل التغييرات المطلوبة ، التى تنبع عنـه . وبتحسين علاقات الانتـاج وتطويرها تتحقق الامكانيات التى يوحدها تطور القوى المنتجة .

وتشهد على هذا تلك العمليـات الاقتصـادية والاجتماعية المرتبطة بالثورة العلمية التكنيكيـة ، والتى هى مميزة لكثير من البلدان الراسمالية . ولنأخذ ظاهرة الاسعار . ان تطبيقها كثيرا ما يكون لاعتبارات غير تكنيكية ، بل لاعتبارات تتعلق بالمصلحة الخاصة للذين يطبقونها . فمما لا شك فيه أن الأسعار تسهـل العمل ، ولكن باخضاعها للمصلحـة الخاصة تؤدى الى نتـائج متناقضة لهذا تماما ولذا فان الاعمال المرهقـة تظـل فى ظـل الراسمالية بعيدة عن الأسعار .

وتشبه هذا ايضا النتائج الاخرى لاسـتخدام الثورة العلميـة التكنيكية فى ظل الراسمالية : ان تجنيب الانسان العمل المرهق المتكرر الذى يشبه عمل الآلة ، يعود غالبا على العمال بالبطالة ، ومما له دلالة واضحة فى هذا الصدد ان ذلك يحدث فى ظروف نقص العمال ذوى المهارة العالية . وان وجـود أوقات الفراغ ، اللازم لتطور الشخصية المتكاملة يتحول الى الصعلكة والتفـاهة والتسلية المستهترة . ومن الممكن أن نذكر الكثير من المتناقضات الاخرى .

وباختصار ، فنمو وتطور التـكنيك يمـكن ان يحمل الخير للانسان ، اذا ما طبق مع مراعاة النتـائج التى تحـدثها الثـورة العلمية التكنيكية على الانسان ، وليس فقط بالاهتمام بفعاليتهـا الاقتصادية .

كل هذا يؤكد عدم صحة القول بالأثر الحاسم للتكنيك في التقدم الاجتماعى وانه يعمل بصورة مستقلة . وعلى كل حال فان المجتمع الذى يمزقه الصراع الناتج عن الملكية الفردية لا يمكن ان يفتح المجال الواسع الممكن امام الثورة العلمية التكنيكية المعاصرة وان يكتشف نتائجها وآثارها الاجتماعية . فلا بد بالتالى ان تتم اعادة بناء نظام العلاقات الاجتماعية وفقا لمتطلبات الانتاج الاجتماعى وتحت تأثير نمو القوى الانتاجية ، حتى تكون نشاط وتطور الهيئة الاجتماعية خاضعا لادارة وتوجيه الناس ، الذين لم تعد تفرقهم المصالح المتناقضة ، بل يكافحون فى سبيل المصالح العامة ، والتطور الحر المتكامل لكل فرد . ويمكن بلوغ هذا الهدف فى ظروف المجتمع الشيوعى فقط .

الشيوعية ـ حل ألغاز التاريخ

لا يعقل بالنسبة للماركسية كنظرية علمية أن تتخذ موقف المتفرج المتأمل لما يجرى من الأحداث بين يديها. فيرى الماركسيون انه لا يكفى أن نقاوم الأفكار ومن باب أولى العبارات ، التى تبرر أو تصف ، بل والتى تدين هذا العالم . انهم يتخذون موقف العاملين المؤثرين . وهذا الموقف لا يحدده رفض سلبية الواقع ؛ أو التمرد الفوضوى ضد « النظام » بل تحدده قوانين التطور الموضوعى للعالم ، القائمة على المعرفة ، وعلى فهم عميق للآفاق الواقعية لتطور المجتمع . ان موقفا كهذا فقط يخلق امكانية حل « ألغاز » و « أسرار » التاريخ التى يطرحها التاريخ . وعلى هذا النحو يجب أن نفهم ماركس الذى أكد على أن التناقضات النظرية يتم تجاوزها فى نهاية المطاف بالممارسة العملية .

وهذا لا يقلل ابدا من المعرفة النظرية ، فان اكتشاف اتجاه تطورها ومعرفة طريقة تأثيرها فى حل المشاكل ، هى مهمة غاية فى التعقيد وليست ممكنة بالنسبة لكل عالم .

ولقد تمكن ماركس المفكر والثائر من ايجاد الحل النظرى لمسألة العلاقة بين الانسان و « الظروف » او الفرد و « الوسط » و « البيئة » لانه رأى فى داخل حركة الاسلوب الراسمالى للانتاج امكانيات ووسائل عملية تجعل الانسان مبدعا وفعالا للعلاقات الاجتماعية وقوانين التطور التاريخى .

وهذه الامكانيات والوسائل تطرح نفسها فى مجرى التاريخ العالمى ، فى الطريق الرحبة لنمو وتكوين البنية الاجتماعية والاقتصادية للشيوعية .

ان قانون التطور الاجتماعى لا يستطيع أن يحل التناقضات الواقعية حتى ولو كان هذا القانون واضحا وجليا أو كان طريق تطور التناقضات الواقعية معروفا علميا . ان هذا عمل الناس ، الذين يصنعون تاريخهم ، وهو فى المجتمع الطبقى دور الطبقات ذات المصلحة فى تغيير النظام الاجتماعى القائم والقادره عليه . وكثيرا ما يفسر قول الماركسية بحتميةالظواهر الاجتماعية وتطور المجتمع وفقا لقوانين موضوعية نحو التحولات الاشتراكية ، لا سيما من قبل « نقاد » الماركسية ، بصورة سطحية ومشوهة احيانا . ان « نقاد » الماركسية يفسرون قواعد السلوك ونشاط الناس وروابطهم المشتركة كما لو ان الماركسية تقول بان على الناس ان يفهموا ويستوعبوا هذه الروابط بصورة سلبية . ان ارتباط التطور الاجتماعى بشروط موضوعية ، وهو ما تقول به الماركسية ، يعنى لديهم الغاء امكانية النشاط الانسانى : ان « النواميس » سوف تقود الناس الى الهدف المنشود ، ولا يبقى على الناس الا أن ينتظروا القدر المحتوم ! ! هكذا بزعم نقاد الماركسية .

ويواصل هؤلاء النقاد قائلين ، انه غير منطقى البتة ما يكافح الماركسيون من اجله لان تطور التاريخ الحتمى سوف يقود الى ما يطالبون به من نشاط فعال لتشييد المجتمع الشيوعى بدون

هذا النشاط . ولماذا هذا الاهتمام غير المجدى ؟ لقد صاغ هذا الموقف فى القرن الماضى العالم القانونى شتاملر ، فى كتابه : « الاقتصاد ، والقانون من وجهة نظر المفهوم المادى للتاريخ » . فلقد قارن طموح الماركسيين لتكوين حزب يقود الحركة الثورية ، بتأسيس حزب ينظم خسوف القمر . ومنطق تفكيره يقول ان هناك من لهم مصلحة فى خسوف القمر ، فهل سيكون هؤلاء حزبا للاسراع بحلول الخسوف المطلوب ؟ لا بالطبع . فان الخسوف يتم بقوانين صارمة وليس فى مقدور أى حزب تقديم او تأخير حدوثه فلماذا اذن تأسيس حزب الشيوعيين ، اذا كانت الشيوعية مشروطة بحتمية تاريخية صارمة ؟

لقد دحض بليخانوف فى وقته هذه الحجة . وبعد مضى نصف قرن صدر فى ميونيخ (١٩٦١) كتاب « الأسس الايديولوجية للشيوعية » (وكان الأصح أن يسمى الأسس الايديولوجية لمعاداة الشيوعية) ، فأعاد بالنص الحجة السابقة بقوله « اذا كانت الشيوعية ستحل كحتمية لا مفر منها ، كالخسوف الذى يحدث فى دورات منتظمة ، فعلى الناس أن ينتظروا فقط مجىء الشيوعية ، دون أن يؤسسوا هيئات لتحقيق هذا الفرض » .

ان مهمة الماركسية هى اثبات « عدم شرعية » النشاط الفعال لتحقيق المثل الشيوعية ، وبذلك يهدفون الى عرقلة هذا النشاط بقدر الامكان .

لقد اكتشف كلاسيكيو الماركسية اللينينية القوانين التى يجرى بموجبها تطور المجتمع نحو الشيوعية . وهذا لايعنى أن المجتمع الشيوعى سيظهر من تلقاء نفسه ، بصورة أوتوماتيكية . فلا بد لكى يتحقق هذا من النشاط الفعال فى ظروف تنضج فيها المقدمات الموضوعية لذلك ان هذا النشاط ضرورى لانه ما زالت فى

العالم قوى تقاوم قوانين التطور الاجتماعى . ولتنظيم وحشد صفوف القوى التقدمية المعاصرة لا بد من حزب البروليتاريا .

وتتكون فى ظل الراسمالية وفى وسط البروليتاريا بعض الخصائص التى تجعل الانسان مبدعا واعيا لتاريخه وشخصية تملك كل ثروات المجتمع ، ومسئولا عن كل ما يجرى فى المجتمع .

ان اول خطوة من النشاط الفعال للطبقة العاملة ضد الراسمالية هى فى نفس الوقت اول خطوة نحو الحرية . لان البروليتاريا تحقق اهدافها الخاصة فى هذا النضال ، التى تتطابق مع حاجات التطور الاجتماعى ، ويصوغ هذا النضال شخصية المناضل ، الذى يخلق النظم الاجتماعية الجديدة ، والذى يشارك بفعالية ووعى فى صناعة التاريخ . لقد كتب لينين : ان العبد الذى يعى وضعه كمستعبد ، ويقاومه هو الثورى . والعبد الذى لا يعى عبوديته ، ويعيش خاملا ، صامتا ، فى حياة عبودية غير واعية وصامتة عبد فقط . والعبد الذى يسيل لعابه عندما يصف بارتياح حياة العبودية ، ويعجب بالسيد الطيب والحسن ، هو مداهن وجلف » (١) .

ان بناء المجتمع الشيوعى يفترض تغيير الظروف ، ويقضى على الظروف القائمة التى تشوه الانسان وتخضعه .

ويدخل فى هذه الظروف الملكية الخاصة ، واستغلال الانسان للانسان ، الذى ينتج عن التقسيم الاجتماعى للعمل .

ان الملكية الاجتماعية لكل وسائل وأدوات الانتاج هى التى تحقق امكانية وجود علاقة واحدة من حيث الاساس لكل الناس فى كل مجالات النشاط الاجتماعى . فاذا كان الانتاج والعلم والسياسة والفن أمورا ميسرة للجميع ، واذا كان الاشتغال بها لا

---

(١) ف . ا . لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٦ ص ٤٠ .

يشترط وجود او اكتساب امتيازات فى مجال السياسة او الملكية فهذا يعنى ان كل فرد يتمتع بحقوقه الكاملة وانه مساو لغيره من افراد المجتمع . وذلك يعنى ان مكانه فى المجتمع لايتوقف على الوظيفة التى عليه ان يقوم بها فى نظام تقسيم العمل ، بل على مستوى نمو مواهبه وقدراته . ان تطور مواهبه ضرورة لازمة ليس له فحسب ، بل وللمجتمع ايضا ، لأنه لا يمكن تصور النشاط العملى فى المجتمع الشيوعى دون المشاركة الفعالة لملايين من جماهير الشغيلة . أن الشيوعية تفترض ايجاد ظروف عملية لتحويل كل فرد الى صانع نشيط للتاريخ بالقدر الذى يكون فيه هذا النشاط شرطا ضروريا وهذا هو اهم مقدمات بناء الشيوعية

ان حركة كهذه ستؤدى الى انتصار النظام الاجتماعى الاقتصادى للشيوعية ، التى تشكل قفزة من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية . كما انها تغير الوضع الاجتماعى للانسان بصورة جذرية ، ففى ظل الاشتراكية وهى المرحلة الاولى من المجتمع الشيوعى ـ ينمو المجتمع ويتطور فى ظروف سيادة الملكية الاجتماعية لادوات ووسائل الانتاج ، لتلبية الحاجات المادية والروحية لكل فرد .

ولذا فان تحرير الانسان يرتبط قبل كل شىء بتوافق مصالحه الخاصة بصورة متزايدة مع مصالح المجتمع . ولا يمكن ان تكون للمجتمع ككل اهدافا تتناقض مع مصالح الافراد ، فالمبدا الشيوعى يعنى النمو والتطور الحر الكامل لكل فرد .

ويظهر هذا بصورة واضحة ، فى توافق الأهداف والمصالح الشخصية ، مع المصالح الموضوعية للعمل الذى يمارسه الفرد . وكان مثل هذا التوافق نادرا فى العصور السابقة ، وهو فى الاغلب استثناء . فنجده فى اعمال فنان بارز تنطبق لديه الاهداف الخاصة على الاهداف والمصالح العامة . وما كان الاستثناء فى

ذلك الوقت يصبح معيارا عاما وقاعدة لسلوك ونشاط الناس الأحرار .

ان وحدة المصالح الفردية والاجتماعية تتيح تحويل حاجات التطور الاجتماعى الموضوعية الى دوافع باطنية للفرد ، مما يجعله ينشط بفعالية لتلبية هذه الحاجات ، دون ارغام او تنظيم من خارجه . وهذا يعنى ان الانسان يقرر أهدافه مستقلا . وهذا هو نظام العمل فى ظل الشيوعية . والنظام لازم لكل نشاط وغالبا ما يوجد كمجموعة من النظم والترتيبات الاجبارية . ولكن هل يمكن تصور وضع تختفى فيه كل عناصر الارغام الخارجى من بقاء نظام العمل والانضباط ؟ نعم . ففى ظل الشيوعية يكون الانضباط متعلقا بالوعى ، ويتوقف على مضمون العمل نفسه ، ويغدو الشكل الطبيعى لسلوك الناس ، وتنتفى ضرورة الاجبار الخارجى . وينتصر هذا النظام عندما يتحول العمل الى مطلب حيوى للانسان ، ولا يكون تنظيمه مناطا باشخاص وهيئات ، بل يكون تجسيدا لنشاط وحاجة كل من يساهم فيه . وعلى هذا النحو تصور لينين نظام الانضباط الجديد .

ويصدق هذا على بقية قواعد السلوك والنشاط الانسانى ويصبح الانسان صانعا مباشرا للحياة الاجتماعية ، انه يشترك فى كل المجالات مستقلا ، لا تعرقل نشاطه اية قوة غريبة لا علاقة لها بنشاطه وظروفه . وهكذا ينفتح المجال واسعا لممارسة كل حقوقه ، وامكانياته ، ومواهبه فى سبيل التطور والنمو الحر .

الانسان ـ الفرد ـ الشخصية
(بدلا من الخاتمة)

ان تحليل جوهر الانسان الذى يتم بمعزل عن دراسة النشاط الحيوى المحدد ، تؤدى دائما الى ان الانسان ،

والشخصية تتحول بين يدى الباحث الى مقولة مجردة وكان هذا على وجه التحديد عيب كل الفلسفة السابقة . فهى لم تعرف ، وما كان بامكانها ان تعرف المحتوى المحدد لنشاط الانسان الحيوى . وحتى اكبر فلاسفة الماضى حاولوا تكوين مفهوم للانسان صالح لكل زمان ولذا اصبحت كل المسألة بالنسبة لهم كامنة فى الدراسة النظرية لجوهر الانسان . بينما المسألة المهمة فى الواقع هى دراسة المصاعب الحقيقية وتناقضات الوجود الانسانى ، والحياة الاجتماعية ، والنضال الثورى .. الخ والا كان علينا ان نعالج مسألة لا يحتاج اليها احد الا وهى عملية « التفلسف » الذى سخر منه انجلز سخرية قاتلة . لقد أجاب انجلز على احد الفلاسفة الذين انتقدوا ولاموا الثورة الفرنسية لانها لم تبحث مفهوم « الانسان » ، قائلا : اذا اقتصرت الثورة على دراسة مفهوم « الانسان » فما كان الحديث ممكنا لا عن التاسع من ترميدور ولا عن الثامن عشر من بروميير ، ولاكتفى نابليون برتبة جنرال ، وربما كتب فى سنوات الشيخوخة عن نظام خدمة الصف العسكرية « من وجهة نظر انسانية » (١) .

ومما لا شك فيه أن التحليل النظرى لشروط نضال هذه الطبقة أو تلك ضرورى فى جميع الحالات . ولكن التقرير التجريدى لجوهر الانسان وتأليف كل التعريفات المتحذلقة ، بمعزل عن الوقائع العملية للتطور الاجتماعى ، عمل غير مثمر من الوجهتين النظرية والتطبيقية ، ولا تعيننا على فهم تقلبات حياة نابليون أو أى انسان آخر . ان اكثر الصفات الانسانية جوهرية تظل ثابتة بصرف النظر عن كون نابليون غدا امبراطورا ام حارسا لمدرسة ، أو كون جارى مؤلفا موسيقيا عظيما او مغامرا .

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز ، المؤلفات ج ٤ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

ان مفهوم جوهر الانسان فى الماركسية ليست بأى حال من الاحوال صيغة نظرية مجردة . فهذا المفهوم يفترض دراسة التأثير المتبادل للعلاقات الاجتماعية ، ونشاط الناس الاجتماعى ومجمل التطور الاجتماعى . ولا يعترف هذا المفهوم بأى تجاهل للناس الواقعيين أى الشخصيات التى يخلق عملها الخصائص المميزة لمجمل العلاقات الاجتماعية فى كل مرحلة . ان الماركسية لا تنظر الى الانسان كشىء يجاوز قوانين التطور ، بل الانسان هو نتاج قوانين التطور الاجتماعى فى نفس الوقت .

ان الوحدة العضوية لنشاط الناس و « الظروف » التى يصنعونها تحدد ، وتصبح محددة فى مفهوم « الشخصية » . ولا يفرق الناس فى الاستعمال العادى ، اليومى ، بين محتويات كلمات كالانسان والفرد والشخصية . وفى الواقع فهذه الكلمات لا تحمل معانى واحدة .

امامنا زيد وعمرو وعبيد ، هل يمكن ان نقول ان كل واحد منهم على حدة فرد ؟ بلا شك . وحتى دون ان نعرف عنهم شيئا ، وبدون مظهرهم الخارجى ، نميز بينهم بالطول ولون الشعر فهل يمكن ان نقول ان كل واحد منهم شخصية ؟ ارى ان هذا غير ممكن . كيف يكون شخصية اذا كان زيد على سبيل المثال ليست له وجهة نظر خاصة فى اية قضية ولا يهتم بشىء غير الفرق بين طبقين من اللحم البقرى . ان الشخصية كما يتبادر الى ذهن اى واحد منكم شىء ملحوظ وله معنى .

وهكذا فنحن نرى ان الفرق بين هذه الكلمات يعرف بالحدس حتى من وجهة النظر العادية . ولكن التعريف الدقيق بالفروق بين مفهومى « انسان » و « شخصية » ليس امرا بسيطا .

صحيح انه يمكن فى البداية محاولة تحديد مميزات « الشخصية » ثم تحاول ان تدرج ضمن هذه المميزات هذا الفرد او ذاك . ولكن مفهوم الشخصية لا يناسب مثل هذه المحاولة .

فما هى هذه الصفات ؟ وكم عددها ؟ وبصورة عامة ان هذه « الحسابات » للصفات عمل غير مجد : اذن ، ان تميز الفرد بخصائص معينة يكون شخصية وبدونها لا يكون شخصية ؟

ولحسن الحظ فان المخرج من هذه الأزمة قد حدده العلم ؛ فبقدر ما تتوافق مميزات الفرد مع جوهر الانسان يكون شخصية ولكن يجب الا ننسى أن جوهر الانسان شيئا ثابتا ، او مجموع علاقات انتاج مساوية لذاتها دائما . فاذا تغيرت العلاقات تغير معها ايضا جوهر الانسان . ان الانسان ظاهرة تاريخية محددة وهو يختلف باختلاف العصور . ولذا فان الصفات ، ومميزات السلوك التى تجعل من الانسان شخصية لامعة تتغير من عصر الى آخر . فقد كان روبسبير مثلا مناضلا نشيطا لتغيير الأوضاع الاقطاعية القائمة ولتصفية العوائق التى يمثلها نظام الاقطاع فى طريق التطور الاجتماعى ، ومدافعا عن مصالح البرجوازية الصاعدة ، وهذه صفات انسان مرحلة الثورات البرجوازية . ولذا كان روبسبير انسب شخصية لانجاز التغييرات الضرورية فى تلك المرحلة من تاريخ الانسانية .

ولكن المجتمع الاشتراكى يخلق نمطا جديدا من الشخصية يتسم بصفات النزاهة والدفاع المستمر عن مصالح العمال ، والكراهية لكل أنواع استغلال واستعباد الانسان ، وهو ذو علاقة ثورية بمخلفات الماضى البالية وكذلك باشكال وقواعد النشاط القديمة البائدة ولديه الطموح والقدرة على العيش فى وسط الجماهير ، والتعلم منها وان يخضع معارفه ومهارته وموهبته لمصالحها . لقد كانت هذه صفات الكاتب السوفييتى نيقولاى اوستروفسكى ، وهى صفات تلائمه مع التغيرات الثورية لزمانه بكل حدتها واتساعها .

ففى المجتمع الاشتراكى ينجز العمال هذه التغيرات الهائلة بانفسهم ولمصلحتهم . ولذا فان هذا المجتمع يخلق الابطال ، ويدفع

الملايين الغفيرة للابداع التاريخى ممن يعرفون بالناس « البسطاء » والذين يعدون فى هذه المرحلة الصناع الحقيقيين للتاريخ .

ولا بد من معرفة كل تعرجات حياة الانسان ، كى نتمكن من تقدير مصيره وان ناخذ فى الحسبان الحقائق الثابتة التى اثرت فى تكوين طباعه ، ومصالحه وعقائده وقدراته . وكلما كانت المؤثرات التى تدخل فى تكوين شخصيته مرتبطة بحاجات العصر، كلما كان هو معبرا عن الخصائص الاساسية المميزة للنشاط الانسانى فى ذلك العصر . وكلما كان هذا الفرد ابن عصره زادت قدرته على تحقيق الاهداف التاريخية التى يطرحها عصره وبذلك يصبح شخصية .

ولا يمكن ان نقول ان كل فرد من افراد الجنس البشرى شخصية ، ان الشخصية هى ذلك الفرد الذى يملك المواهب والاستعدادات التى تناسب العصر والتطور التاريخى ، والذى يقدر على النشاط المبدع ويطمح اليه . وهو بذلك يصبح مسئولا عن تصرفاته وقراراته ويشارك بوعى فى ايجاد انواع جديدة من النشاط والعلاقات الاجتماعية الجديدة . لقد اعطى العالم النفسانى السوفييتى س.ل. روبنشتاين صفة موفقة لمفهوم الشخصية فقال : « ان الانسان يكون شخصية فردية بتوفر خصائص مميزة ينفرد بها الانسان شخصية بقدر ما يمتاز كذات ، يكون الانسان شخصية الى درجة قصوى عند ما تكون الصفات مثل الحياد ، وعدم الاهتمام واللامبالاة لديه فى حدها الادنى » (1) .

---

(1) س . ل . روبنشتاين . « مبادىء وطرق تطور علم النفس » اكاديمية العلوم السوفييتية ١٩٥٩ . وسوف يجد القارىء فيه مواد غزيرة تدرس قضية الشخصية من وجهة نظر ماركسية لينينية .

وقد برهن علم النفس المعاصر على ان مميزات الشخصية لا تتكون بمعزل عن نمو العلاقات الاجتماعية ، بل بالاندماج فيها وباكتساب واستيعاب انواع مختلفة من النشاط الانسانى . ان الصفتين « الشخصية » و « الاجتماعية » ليستا خطين متوازيين ، بل عملية واحدة تشمل تطور الانسان والمجتمع . ان الشخصية هى وجود العلاقات الاجتماعية بصورة محددة .

وهكذا فان كل شىء يتعلق بدرجة اندماج كل فرد فى مفهوم جوهر الانسان : فبالقدر الذى يكون به الفرد انسانا يكون شخصية .

ان فهما كهذا يستبعد التصور المجرد لجوهر الانسان ، ويتيح الفرصة لربط المفهوم النظرى للانسان ، بمصائر الناس الواقعيين .

ان معنى الحياة ورسالة الانسان الحقيقية ليست فى المقاييس الفردية للمصالح والهموم ، وليس فى الحماس لمطالب المعدة وليس فى الاهتمام الأنانى بمنتجات الثقافة ، بل هو فى الابداع ، فى تغيير العالم ليستطيع كل انسان بوعى وحرية فى أثناء الاختلاط المتكافىء بأمثاله من الناس ان يشيد علاقات اجتماعية جديرة بالانسان ويحقق بذلك نفسه كشخصية . ان علاقات اجتماعية كهذه يمكن ان تتوطد فقط فى ظل المجتمع الشيوعى . فان الشيوعية وحدها تطرح مسألة النمو المتكامل للشخصية كأخطر مهمة لكل حركة التطور الاجتماعى ، والتلبية الكاملة للحاجات المادية والروحية لكل فرد فى المجتمع ، ان توطيد الملكية الاجتماعية وتصفية احتكار انواع النشاط المعروفة والمواهب التى تناسبها وتحويل العلم والثقافة وكل الثروات الروحية للانسانية الى مشاع عام ، للناس ذوى التطور والنمو الجسدى والاخلاقى والعقلى . ولكن كل هذا لا يأتى لوحده . فلابد لذلك من النشاط الفعال الدءوب لكل بناة المجتمع الشيوعى فليست هنا

وسيلة اخرى للافصاح عن كل مكنونات جوهر الانسان غير النشاط ، والكفاح . « ان النضال وحده يربى الطبقات المضطهدة ويعرفها بمقدار قوتها ، ويوسع افقها ، ويعلى من مواهبها ، وينقى عقلها ويطلق ارادتها » (١) .

ان النشاط الواقعى المتعدد الجوانب ، والمساهمة الفعالة فى النضال تصوغ الشخصية . وتربى انسان المرحلة الجديدة وهى الشيوعية .

ها نحن نأتى الى ختام بحثنا عن اسرار الوجود الانسانى . ولكن هذا لا يعنى اننا قد انهينا كل الصعوبات والمشاكل . ان الانسانية تواصل نموها اللا نهائى وتجد فى طريقها دائما مهام جديدة وعوائق وصعوبات ، وبحلها تتقدم الانسانية الى الامام . ويتطور وينمو الانسان أيضا فى نفس الوقت . ولكن حل تلك المشاكل والصعوبات التى سوف تعترض الانسانية ممكن فقط انطلاقا من الموقف الماركسى ـ اللينينى وفى طريق تطور المجتمع الشيوعى فقط .

ان أعلى قيم الانسان ، واهم ثروات الانسان هى الانسان نفسه . « اى شىء هى الثروة اذا كانت شيئا غير التطور الكامل لسيادة الانسان على قوى الطبيعة اى على قوى مايسمى « بالطبيعة » ؟ اى شىء هى الثروة اذا لم تكن افصاحا مطلقا عن مواهب الانسان الخلاقة ، دون اية مقدمات لها غير التطور التاريخى السابق ، الذى يجعل هذا النشاط المتكامل هدفا ، اى تطور كل القوى الانسانية بذاتها ، دون اية علاقة بشروط وحدود معينة مسبقا » (٢) . والشيوعية وحدها تخلق مثل هذا النظام ، الذى يصبح الانسان فى ظله هدف التطور الاجتماعى .

---

(١) ف. ا. لينين ، المؤلفات الكاملة جـ ٣٠ ص ٣١٤ *

المحتـــويات